رواية

جسد ضيق

هويدا صالح

ALRAYAH
الراية
للنشر والتوزيع
٢٠١٦

جسد ضيق

للمؤلفة

هويدا صالح

عدد الصفحـــــــــات : 216 صفحة
عدد الألـــــــــوان : 1 لون
مراجعة لغـــــــوية : قسم المراجعة بالدار
تصمـــــــــيمات : القسم الفني بالدار
تصميم الغلاف ورسومات : رحـــاب العمـــري

يجوز تصوير أو نقل أو نسخ أو توزيع أو نشر
هذه المادة بأي طريقة إلا بموافقة خطية من
دار الراية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
لدار الراية للنشر والتوزيع

2016

توزيع

ALRAYAH
MEDIA PRO . TEC

رقم الإيداع : 8868 / 1436

الترقيم الدولي : 2 - 9292 - 01 - 603 - 978

15 شارع سوريا - المهندسين - الجيزة - جمهورية مصر العربية
تليفون :
002 02 33451851 - 33026637 - 33446727
E-mail:rayatop@hotmail.com

إهـــــداء :

إلى بيت أنتمي إليه وعلَّمني المحبة ،

إلى أبي "عبد القادر صالح حسين"

وأمي " صباح محمد مرسي " .

وللشرِّير قال الله :

"مَالَكَ تتحدث بفرائضي ، وتحمل عهدي على فمك؟"

(مزمور 50/16)

عرائس المحبَّة القطنية

كان جديــراً بــه أن يصدق أننا عــبر الخيال يمكن أن نعــبر بوابة الأمل ، وأننا حينــما نبحث عن الخروج من عتمة الروح ما علينا سوى أن نرسم باباً ونصدق وجوده، ساعتها سوف نستمع بوضوح لصوت الباب وهو يُفتح، ونــرى غمرة الضوء تُزيح العتمــة ، وتملأ فضاء النفس ، كان جديراً به أن يســتمع إلى موسيقى الأوركسترا التي تُعزَفُ في حُجرة صغيرته ، أن يشمَّ رائحة السحاب التي تقطفها من سقف الحجرة ، كان عليه أن يشاركها الرقص في مملكة الدُّمَى التي صنعتها الأم لصغيرتها ، وعاشــت الصغيرة بــين هذه الدمــى ، كان الأبُّ يحكي لها حكايا عن صبايا عاشــقات وأميرات ينتظرن الفرسان ، وفرسان لا يأتــون ، وكانــت تتألم حــين يأتي الصباح، فعرائسُــها التي تــدبُّ فيها الحياة ليلاً تتحول مع أول ضوء الصبح إلى مجرد أقمشــة مُخَاطَة على هيئةِ عرائسَ ومحشــوَّة بالقطن .

كانت قِطَـعُ القطن التي تختلســها أمُّها من حقيبة أبيها بشــكل شبه يوميّ كافية ، لأن تصنع مرتبة لسرير يسَعُ اثنين من الرجال الأشدَّاء ، كان الأب الحاني يضحك من امرأته ، ويخبرها أن قطن المرضى أولى به جروحُهم، وأنه يمكن أن يشــتري لها جِوَالاً مملوءاً في موعد جَنْي القطن من الفلاحين بدلاً من القطن الطبي الذي تغافله وتأخذه لصناعة عرائس ابنتها ، وكانت المرأة لا تستجيب للمــزاح وتتلقى الأمر كتوبيخ لا يليق بأب حنون يجب أن يقدر حرص امرأته على إسعاد ابنته ، ولمَّا غُلِبَ الأب مــن فعل امرأته لم يجــد بُدَّاً مــن شراء كيس كبير من أقطان الفلاحين في غير موعد الحصاد.

مــا لا تعرفــه المــرأة أن الأبَّ كان يصــلي كل ليلــة للعذراء ، عروس الســماء ، أن تمنح امرأته الحكمة؛ لكي تدع صغيرته تعيــش الحياة بدلاً من تخيلها مع عرائس وفرســان من أقمشة وقطن ، كثيراً ما صلى للرب يسوع وأمه المباركة أن تمتلك المرأة الغاضبة الحزينة الحكمة، وأن تفــرج عن روح صغيرته التي تعتقلها في عرائســها القطنية.

وفي ليلةٍ اشتدَّ به الضيق حين وجد ابنته تكلم الدمى ، بل طفرَتْ الدموع من عينيه والصغيرة تهدهد العرائس، وحين نام وجد القديسة "مارينا" تحضر إليه ، تُجلسه أمامها وتحدثه عن حيوات أخرى يعيشها الإنسان حين يعجز عن إيجاد الراحة لروحه ، وحكت له عن حياتها قبل دخولها الدير، وكيف أنها تركت تلك الحياة المبهجة السعيدة وارتدت ملابس الرجال ودخلت الدير، ثم بشرته بأن ابنته سوف يكون لها سيرة معطرة بعطر روح المسيح ، وأنه يجب ألا يقلق أو يفزع ، بل يجب أن يدعمها في طريق بناء روحها.

قام الأب بعد أن أطلقت القديسة روحه ، تسحب على أطراف أصابعه ، لم يكن خيالاً ما رأى ، لم يكن استكمالاً لحُلمه بالقديسة "مارينا" ، بل كانت صغيرته، ابنة العاشرة تفتح باباً كبيراً ومُذهَّباً ، فيفج الضياء من وراء الباب الذي انفتح ، ضياء لم يرَ مثلُه من قبل ، حين تعودت عيناه الضياء استطاع أن يرى الساحة الخارجية التي انفتح عليها الباب مليئة بالدمى التي تصنعها الأم ، كانت الدمي المصنوعة على هيئة بنات

وشــبان يملؤون الحجرة عن آخرهــا ، والصغيرة تتحكم فيهــم جميعــاً ، كانــت الفتيات جميــلات وفي ملابسَ رائعــةٍ، وثمة موســيقى ناعمة تعزف ، والفرســان على الأحصنة يقتربون من الفتيات وهن يتهيأن ؛ للمشــاركة في للرقــص ، وابنته تدور بينهم فرحة ســعيدة ، اعتقد أنه ما يزال يحلم ، لكنه يســمع صوت شــخير امرأته ، كما يستمع إلى الموسيقى بشكل جليّ، سار بين الأحصنة الصاخبة دون أن يعترض طريقه أحد أو ينتبه لوجوده ، وحين اقترب من ابنته الوادعة السعيدة والتي تلف بين الجميع وتبتســم ناداها باسمها، فانتبهت وذهبت إليه مرحبــة ، قال لها : "هل نحــن في حلم؟" ، قالت : "بل هي حقيقة" ، واســتعطفته أن يحافــظ على سرها ولا يخبر به أحداً وإلاَّ ضاع كل شئ. في كل مساء ينفتح لها باب الســعادة، وتتحول دُمَاها وعرائســها لهذه البهجة الفاتنة ، قال الأب بصوت يملؤه الخشــوع: "إنها عطية الــرب يا ابنتي" ، طلبت منه أن يقســم ألاَّ يُخبرَ أحداً ، وخاصة أمها ، وذكرته بقصتها حين ظلت شهوراً كل يوم تجد في طريق ذهابها إلى المدرســة نقوداً تتراوح ما بين القرش والخمسة قروش والعشرة ، ولكنها حينما حدثت

أمها عما تجد ، انقطع عطاء الرب، وساعتها قال لها هو بذاتــه أن العطية تنقطــع إن تحدثنا عنها لأحد ، قالت له باســمة : "إذن هو سرنا الخاص يا أبي" ، ابتسم الأب ابتســامة متواطئة وخرج بعد أن تركها وســط بهجتها الخاصة .

كان الأب مــا بين التصديق والتكذيب ، لكنه قدم لها ما أرادت من وعــود ، لكنه انتزع منها وعداً أن تتفوق في دراستها، حتى تتمكن أن تعبث وتمرح مع دُمَاها.

في الصباح حين دخل حجرتها ليوقظها ، تلمَّس مكان البــاب الذهبــيّ الــذي كان مُثبَّتاً في منتصــف الحائط المقابل للمنضدة التي ترص عليها أيقونات القديســين، شــعر أن ثمة ترددات وذبذبات تلامــس جلد يده ، هزّ رأسه ، ليبعد عنها ذلك التفكير، فهو غير متأكد تماماً مما رآه مساء، وهل هو حقيقة أم خيال ، لكن ما هو متأكد منــه حتماً أن الله يحب تلك البنــت التي تحمَّلت كل هذه القســوة من أمها دون أن تهمس ولو لنفسها بأن يريحها الله من قســوتها حتى لــو رفعها عنده ، يعرف أنه بخــلاف ابنته طالما تمنَّى تنيُّح زوجته ، ليتخلص من

كل هــذه المعاناة ، لكن ابنتــه المحبة لأمها تتحمل كل العذابات دون أن تشتكي لأحد حتى ولو للمسيح نفسه.

***

الست سارة

لســنوات ثلاث كانت التجربة مليئــة بالمخاطر رغم الكثير من الرســائل الآتية من السماء ، حتى جاء اليوم الذي أصبحت النســاء في القرية ينادينها بالست سارة ، كان بيتُها ـ المُطِلُّ في جزء منه على "حارة النصـــــاري" وفي الواجهة الرئيســية على"الشارع البحري" ـ هو قبلة لكل نساء القرية ، لا فرق في اللقاء وفي ابتسامة الوجه ، كلُّهُنَّ يجدْنَ الترحيب وحسن الاستقبال ، بشاشةُ وجهها، وهي تستقبل مسلمة أو مسيحية كانت تُضِئُ مُحيَّاها ، كما أنَّ لكل النساء متسعاً في روح "الست سارة" زوجة "الباش حكيم يوسف" .

قيــل في القرية الكثــيرُ من الأقوال حــول زواج تلك الســيدة "ابنة القصور الملكية" مــن ممرض ليس أكثر ولا أقــل مهما قيل عــن أخلاقه ، لكنَّها تظــلُّ أقوالاً لا تقدم ولا تؤخــر من حيث حقيقة ما حــدث. تزوَّجتْ

من "يوسف" بعد أن قابلته في زيارة عائليَّة لبيت خالها في المنيـا ، لم تكن تتصوّر يوماً أن تترك القاهرة وصخبها وجمالها ، وتأتي لتعيش في الصعيد ، كيفَ لها أن تستغني عن ليالي الغناء والطرب وحفلات الأوبرا ومعارض الفن، وشاشات السينما ، وأحدث خطوط الموضة ؟ وإن حدث ذلـك مثلاً كيف تترك عملهـا كموديل في أكبر محل من محلات الموضة؟! هل بإمكانها أن تسـتغني عن التريض في النادي والتسـوق من أشـهر محلات القاهرة، وتأتي لقريـة نائيـة في عمـق الصعيد ، وتعيش مع مسـاعد طبيـب ـ كما أخبرتْ زميلاتها وصديقاتها سـاعة الزواج ـ أو ممـرض بالمعنى الدقيق لوظيفته أو"حكيم باشـا" كما يصفـه أهلُ قريته؟! ، ظلَّتْ تلك الأسـئلة تدور في محيط "سارة" حتى بعد زواجها بوقت بعيد، بل الكثيرُ مـن الأصدقاء كان يتوقع حضورها في أي صباح قريب ، كانوا يتوقعون أن تدخل عليهم النادي في صباح شـتويّ وتخبرهـم أنها كانت مجرد مغامرة لفتاة مرفهة ، وهذا ما لم يحدث يوماً .

بالطبع كانـت ابنة الممرضـة الإنجليزية "مادلين" ـ

التي اصطفتها أميرة من أميرات البيت العلوي في نهايات الأربعينيات من القرن الماضي ، وعاشت معها في قصرها ـ لا تتصــور الحياة في صيغة أخــرى بعيداً عن صخب القاهــرة ، مركز البهجة في العــالم كما كانت تقول أمها. لم تكــن الفتاة الصغيرة ـ خريجة "الميرديه" ، المتفجرة بالحياة ـ تعرف من هو أبوها ، ســألت أمَّها كثيراً عنه، فأخبرتها أنه عادَ إلى لندن ، ولم تســمعْ عنه شــيئاً منذ ســنوات طويلة . ما لم يكن مفهوماً لــلأم ربيبة النعيم هذا التحولُ المفاجئ في شــخصية ابنتها ، تفاصيل حياة "سارة" قبل الزواج لم تكن تشي بهذا التحول الدراماتيكي ، لكنها قبل الســفر بأســبوع إلى المنيا حلمت بالعذراء المقدسة تأتيها وسط مجموعة من الفتيات اللاتي يرتدين ملابس تشع ضياء ويضعن باقات الورود على رؤوسهن، أشارت لهن القديسة ، فالتففن حولها ، توَّجْنَها بتاج من نور، وأخذْنَ بيدها لتباركها القديســة، تلمَّست قلبها ، ثــم قالت لهــا : "اتبعيه حيثما يأخــذك" ، ثم انصرفت وتركتها وسط لُجَّة من سعادة ، بالطبع لم تخبر الأم عن الحلــم ، وحين أقدمت على هذا التحول الكبير نســيت في زحمــة الأحداث أن تخبرها عن حلمها ، وحين أصرَّت

على الزواج من "يوسف" رضخت الأم لرغبتها ، وجهَّزتها بجهاز يليق بأميرة ورحلت معها للصعيد ، مكثت بضعة أيام حتى تطمئن على قدرة ابنتها في مواجهة العالم برفقة الحبيب ، ثم ودَّعتْها وعادت لعملها في القصر .

حين قابلت "يوسف" في أول زيارة لها في الصعيد تذكرت حلمها ، وشعرت برغبة في اكتشاف هذا الشاب الجادّ الحَنُون والمختلف عن كل من يحيط بها من شباب ، تعارفا وتحدثا طويلاً ، وفي نهاية اللقاء طلبها للزواج ، فوافقت دون أية شروط ، ألم تقل لها المباركة أم النور اتبعي قلبك ؟

لقد عشقت "سارة" المُرَفَّهة "يوسف" ، وتحمَّلت معه قسوة الحياة في بيت ريفيّ ، تفانَتْ في إسعاده طويلاً ، وأحسنت تربية أبنائها ، لم يكن ثمة من متعة سوى الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد ، وزيارة مدينة ديرمواس أو مدينة ملوي ، حتى طلبات بيتها كانت تشتريها من هناك ، ولم تكن تطلب روحُها شيئاً ، وحين استقرَّ أبناؤها في المدينة لم تعترض واكتفت بأن تزورهم يوم الأحد من كل أسبوع حين تذهب هي وزوجها في

رحلتها الأســبوعية المقدســة للكنيســة ، لم يُعرَفْ عنها تخلفها عن قداس الأحد مرة طوال أربعين عاماً عاشتهم برفقة زوجها .

***

البحث عن الخلاص

لم تكــن "دميانة" أم فردوس قــد ولدت بعد حينما قرر المقدس "صبحي" أن يترك بلده وتجارته في أسيوط ويرحــل إلى الشــمال باحثاً عــن قرية رآهــا في نومه ، و"يســوع" يأمره أن يشعل شموعه في بيت ريفيّ على شــاطئ ترعة صغيرة ، كانت حياة المقدس "صبحي" في شــارع كنيســة العذراء في أســيوط مثالاً حيَّاً على دعم ملاك الرب لعبد صالح من شــعب يســوع، لا يتاجر في سلعة إلا كسب منها مبالغ طائلة ، ولا يدخل في مشروع إلا وازدهر ، توفيــت زوجته وابنة عمه ، فاعتكف فترة طويلة في دير "المُحرَّق" ، ثم جاء إليه الربُّ يبشره بفتاة صغيرة اســمها "فردوس" تخرج من صلبه وترسم أبواباً للحياة تساعد بها الغرباء في مملكة الرب على أن يجدوا أنفسهم ، حمل إليه ملاك الرب أوامرَ الرب بأن يذهب إلى قرية بعيدة لم يحدد معالمها ، يشعل شموعه ويقيم حيــاة في طاعته ، باع المقــدس "صبحي" تجارته واتجه

إلى الشمال لم يحدد هدفاً بعينه ، قرَّر أن يمُرَّ على القرى الواقعة بعد أسيوط دون اختيار ، كل قرية على طريق ترعة الابراهيميــة التي تتفرع من بحر النيل بداية من أســيوط حتى نهاية بني ســويف مروراً بكل قرى المنيا هي مقصده حتى يتبيَّن إن كانت هي مســعاه وما أمره الــرب به أم لا؟! ، كل قرية ينزل فيها ضيفاً على كبيرها، مســلماً كان أو مســيحياً ، يجلس مع الرجال ويتسامر ويأخذ واجبه ، ويرحل إن لم يشــعر بــروح الله داخله تخــبره أن هذا هو المقرُّ الذي قصــده ملاك الرب وهو يسلمه الشموع ؛ ليشعلها .

مرَّ بكل القرى وروحُه تخبره أنها ليست هي القرية، حتى ركب الحلزونة من ديروط المتجهة إلى ملوي ، وكان ينوي النــزول في القرية التالية بعد ديروط ، ركب معه فلاح قادم من ســوق الاثنين ، جلــس الفلاح يثرثر معه عن قريته وناسها، حكى له كل شئ في نوع من التداعي غــير المقصــود ، لكــن المُحصِّلة أن المقــدس "صبحي" تقريبــاً صار يعرف كل تفصيلة عــن القرية، كأنه عاش فيها طوال حياته ، شــعاعٌ من الضــوء أنارَ داخله ، قال

لنفسه : "لابد أن ملاك الرب أرسل لي هذا الرجل، ولابد أن هــذه هي القرية التي يريدها لي يســوع" ، قرَّر أن يتابع مع الرجل ، ونزل معه في قرية "اســمو العروس". ومنذ الخطوات الأولى عــلى الطريق الترابيّ للقرية وكل شــئ يخبره أنه سيســتقر فيها ، وحــين وصل لم يذهب إلى عمــدة القرية كما تعوَّد أن يفعــل ، فقد مال قلبُه للشــيخ "صالح" وأبنائه : "عنتر" و"عبد القادر" و"عبد الرحيم". حكايــات الفلاح صديق رحلة الحلزونة عنهم جعلــت روح المقدس شــغوفة بأن ينــزل عليهم ضيفاً، فبيتُهــم المفتوح دومــاً لرجال الله وأهــل الخطوة لن يرفض دخول رجل مســيحيّ يقوده ملاك الرب ويسكن المسيح روحه ، قالت له روحُه في منزلهم: "سيجد راحته التي يسعى خلفها" .

حين وصل استقبله الشيخ البَشُوش بمحبَّة وترحاب ، أقام في المقعد البحري الذي كان يخصصه الشيخ لضيوف الله المارِّين ببيته ، أكل عيشــهم وملحهم ، بل شاركهم حــضرة نورانيــة عُقِدَتْ بمناســبة مــرور مجموعة من المتصوفة القادمين من الجنوب وهم متجهون للشــمال

لزيارة الأئمَّة والأقطاب، جلس معهم دون أن يسأله أحدٌ عن دينه ، وبعد انتهاء الحضرة تحدث مع الشـيخ عن رغبته في أن يستقرَّ في البلد ويقيمَ حياة فيها .

كان قـد عرف من الفلاح الـذي رافقه في طريقه أنَّ هناك أرضاً قبلي البلد معروضة للبيع وهي ملك لأرملة، ابتسـم الشـيخ "صالح" وطمأنه بأن مصلحته مقضيَّة بأمـر الله وبركة الأوليـاء ، وقد تصادف أن الأرملة هي زوجـة أخيه الذي توفى عنها شـاباً وتـرك لها ثلاثة من الذكور صاروا الآن رجالاً .

كانـت الحاجـة "فوزية" زوجة أخ الحـاج "صالح" أفنَتْ عُمرَها في تربية عيالها ، حتى صاروا رجالاً ، كانت تشـعر بالوحدة والحُزن بعـد أن كبُرَ الأبنـاء وتركوها وحيدة ، كثيراً ما تذهب إلى دكان الحاج "نصر" وتطلب منـه أن يتصل لها بواحد مـن أبنائها ، وبعد كل اتصال تخـرج المرأة بوعود كثيرة، غالباً لا تتحقق ، عن زيارات قادمة ، وعن أحفاد يشتاقون لها، وعن زيارة لبيت الله الحرام سـوف تتحقق هذا العام ، وغالباً لا تتحقق كل هذي الوعود ، فلا الأبناء يأتون في الإجازات ولا الأحفاد

يملــؤون بيتها صخباً ومرحاً ، ولا زيارة بيت الله المؤجلة منذ ســنوات طويلة تتحقق ، تغلق الأرملة الســمَّاعة ، وهــي متيقنة أنهم لن يأتوا هذا العــام أيضاً ، وأن كل وعودهم تشــبه وعــود العام الفائت ، قــرَّرت أن تبيع أرضها التي لا تزال باسمها بعد أن كتبها لها الزوج وهو في سريــر المرض ، قرَّرت أن تبيع الأرض وتذهب للرحلة المقدسة .

قام الشيخ بالوساطة بين الأرملة وبين المقدس ، وأخذ المقدس "صبحي" الأرض دون فصال في السعر ، ما حكم به الشيخ "صالح" نفَّذه فوراً ، ورضيتْ الحاجة "فوزية" بالســعر المُقدَّم ، فبشــارة الحج التي جاءتها في منامها سوف تتحقق .

ساعد الشيخ وأبناؤه المقدس "صبحي" في بناء بيت في الجــزء الأمامــيّ مــن الأرض ، وزرع البقية محاصيل مختلفة عــما يزرعه الفلاحــون غالباً ، زرع السمســم والبنجــر والكمون وحبة البركة، كل عــام يُدخل زراعة جديدة لا يعرفها الناس ، ويكسب منها، وفي العام التالي تجــد الكثير من الفلاحين يقلدونه ويزرعون محاصيل لم

يتعودوا عليها ، تخرج عن المحاصيل النمطية التي تتوزع ما بين القطن والفول والبرسيم والذرة ، وفي العام التالي يغير المقدس "صبحي" ما يزرعه إلى نوع جديد غير معروف وغير تقليديّ ، وهكذا نشر المقدس "صبحي" أنواعاً كثيرة من المحاصيل التي غالباً ما تحقق مكاسب ضخمة ، وحوَّل القرية إلى قرية اقتصاديَّة من الدرجة الأولى .

عاش المقدس بينهم في أمان تام ، لم يفكر في أن يشتريَ بيتاً في درب النصارى بحري البلد ، بل استقرَّ في قبلي البلد بين الشيخ "صالح" وأبنائه ، لكنه لم يقطع الصلة مع أبناء يسوع من الشعب المسيحِيّ في البلدة، كانوا يلتقون جميعاَ في قداس الأحد في أبراشية المركز، ولم تقتصر علاقة المقدس بالأبراشية على يوم الأحد ، بل كان حريصاً على قداس الجمعة ، وكان يحرص على رحلة نصف شهرية لكنائس أسيوط ، ورحلة شهرية لدير "المحرق" ، كانت الصلة الروحية بينه وبين الكنيسة متصلة اتصالاً حميمياً ، فلم تُنْسِه الدنيا ومكاسبُها وبهجتها تلك الصلة الروحية مع مملكة الرب التي هي

في السـماء ، والتي يحرص على أن يكون من ساكنيها في الفردوس .

بعد نصيحة صديقه الشـيخ "صالح" بأن يتزوَّج قرَّر أن يبحـثَ عـن فتاة مناسـبة له ، فرجلٌ لـه قيمتُه في القرية لابدَّ أن يتزوج ، ليعفَّ نفسه مثلما قال له الشيخ الـوَرِع المحب للإنسـانية دون تفريق ، فكَّرَ المقدس في كل بنات الأبراشـية الـلاتي يراهن في القـداس ، لفتتْ نظـرَه فتاة تعمل ممرضة في مستشـفى المركز ، جمالها باذخ ، فهـي تجمع بين خفة الـروح المصرية والجمال الأوروبي الـذي ورثته عن جدتهـا الإيطالية ، تزوَّج من "لوتـس" ، وكانتْ زهرة جميلـة ، لكنَّها كانت متمردة طـوال الوقت ، طلباتها لا تنتهي ، وهو لا يقصر معها ، يعرف أن فرق السـن بينهما يجعلها تتدلل عليه ، وكان يحنُـو عليها كصغيرته التي أنجبتها له والتي ورثت عنها جمالها الأخاذ، اعتبر "صبحي" أنَّ الآن صار لديه ابنتان : زوجتُه المدللة "لوتس" وابنته الحبيبة "دميانة" ، نشأت "دميانـة" كأيّ طفلة ريفية، لكنها أبداً لم تنسـجم مع أبناء الجيران الذين كانوا ينادونها "البنت النصرانية بنت

العايقة" ، كانت تخرج منهـم جملة "البنت النصرانية بنت العايقة كأنها سباب وشتائم، وكانت تذهب لأبيها باكيـة ، فيضمُّها باسـما ويخبرها أن النصرانية ليسـت سُـبَّة ، فسيدهم المقدس "يسـوع" ابنُ مدينة الناصرة في القـدس ، ولم تكن ترضى ، كما أنَّها لم تكن تفهم ماذا تعني كلمة العايقة ، فكان يخبرها أيضاً أنهم يحسدونها عـلى جمال أمها ، فالمرأة العايقة هـي المرأة الجميلة ، لكنَّها أبداً لم تكن ترضى .

تغضب "لوتس" وتخبرها أن تسُـبَّ لهم دينهم كما يشـتمونها ، لكن الأب الحكيـم والحريص على علاقاته الطيبـة مع جيرانه يخبرها أن الـربَّ أمرنا بمحبَّة كل ما يحيـط بنا مـن كائنات وليـس البشر فقـط ، ويأمرها أن تقـول لهم: "ليغفر لكم الرب يسـوع ما تقولون" ، وكانت "لوتس" تصرخ فيه ، وتخبره أنها لن تدير خدَّها الأيـسر لأحـد ، وأنها يجب أن تأخـذ حقها من الصغير قبل الكبير، فيبتسـم لها الأب في رفق ، ويطبطب عليها وعلى صغيرته ، ويهدئ بالهما ، ويذكرهما بمملكة الرب التي تُعطَى للمتسـامحين وليس لمن يحرصون على أخذ

حقهم بالعنف والغضب .

في كل مرة تخرج للشــارع ترجع باكية ، وفي كل مرة يُطيِّــب أبوهــا خاطرهــا ، وتغضب أمهــا ، ولم يتوقف الأمــر عند هذه الأوصاف التي يصفها بها الصغار، ففي المدرســة كانت تعاني معاناة شــديدة مــن التحرش بها وضربها ، فقد كانت هي المسيحية الوحيدة في الفصل .

مرَّتْ الأيام وغادرها الداعم النفسي لها ، مات المقدس "صبحي" دون مرض ودون مقدمات ، في الصباح أيقظته زوجته ، فوجدته فارق الحياة ، لم تستوعب الفتاة التي صارت على بداية الشباب كيف يرحل أبوها دون مرض أو حتــى وعكة صحيــة ، لكنَّه الإله حــين يقرر أمراً لا نعرف نحن ـ الفانين ـ حكمته ، تنيَّح المقدس "صبحي" وترك قلباً غضَّاً يذبُل بعد رحلته إلى الملكوت.

أقام الشــيخ "صالح" له صوانــاً للعزاء يليق بصداقة لم يعكــر صفوَهــا شــئ ، ووقف يتلقى عــزاءه كواحد من أهله ، وكان الباش حكيم "يوســف" كبير الشــعب المســيحي في البلــدة يقف بجانب الشــيخ كتفاً لكتف يتلقيان العزاء ، ولم يمض وقت حتى بدأت الإشاعات تُثَارُ

حول المــرأة الجميلة، فكانت "دميانة" تســمع بأذنيها أحاديث الجارات اللاتي يتعمَّدْنَ أن يصل إلى أســماعها مــا يرددن ، فمن يقول أنَّ "لوتس" أحبَّتْ "محمود بن البكري" الذي يتاجر في السلاح والمخدرات وأنها تآمرت على التخلص من المقــدس؟ ومن يقول أنَّها كانت تضع له دم العادة الشــهرية في الشــاي طوال أيــام الدورة ، حتى تسمم جسده بالبطئ ؟ ومن يقول أنها عملت له عملاً عند الشــيخ "مــرزوق" في ديروط ، ودفنته في قبر مفتوح حديثــاً ، وكلما فُتح القبر لإدخــال جثة جديدة فيــه تضعف صحة المقدس حتــى جفَّت روحه وتيبَّس جســدُه ومات ؟ خلاصة الشــائعات تدين الزوجة التي كانت مدللة ، وتُشير بيد الاتهام لعلاقتها بابن البكري .

كانت الفتاة تســمع كل ذلك ، وتبكي دون أن تجرؤ على مكاشــفة أمها بما تسمع ، وقررت بينها وبين نفسها بعد أن أشــعلت شــمعة لأم المخلــص وطلبت منها أن تكشــف لها الحقيقة ، قررت أن تراقب أمَّها عن كثب؛ لترى هل حقــاً لها علاقة بمحمود البكــري الذي كانت تخشى عيونه الصقرية حين كان يأتي لأبيها يشــتري منه

بضاعة ، فقد كان يتاجر في الحبوب، ويتخذ من تجارته ستاراً للتجارة الأخرى غير المشروعة .

بعــد الحصاد كان يأتي "محمــود البكري" إلى بيت المقــدس "صبحي" يشــتري الحبــوب المختلفة، ويظل يفاوض المقدس حتى ينال أدنى ســعر ، لكن المقدس لا يتنازل ولا يبخس بضاعته، وفي النهاية يشتري "محمود" بمــا يقرره المقــدس ، لكن عيونه أيضــاً كانت تجول في المنزل ، يترصَّــد الزوجة الجميلة ، وهي تبادله النظرات المتواطئــة بعيداً عن عيون الزوج الآمنة، يشــتري "ابن البكــري" من أبيها محصول السمســم والبنجر ويُورِّده للمصانــع في المنيا وأبي قرقاص ، لم تشــعُرْ بالراحة يوماً في وجــوده ، عيونه مغارة مخيفــة ، كانت تقول لأبيها أنَّ الشيطان يســكن في عيونه ، فيخفف عنها مخاوفها وينسى الأمر .

الآن عليها أن تكتشــفَ خيانة أمِّها لروح أبيها ، الآن عليهــا أن تكبش الجمر بين كفَّيْهــا دون أن يصدرَ عنها صــوت ، بل يجب عليها أن تبالــغ في إخفاء الأمر حتى تتيقن ، ولكنَّها يوماً لم تتيقن ، كلُّ ما وعتْه أنَّ المسلمين

هــم الخطــرُ الحقيقيّ الذي يُحيط بهــا ، وأنَّ عليها أن تحمي نفسها منهم طوال حياتها.

ولم تمر سنة حتى جاءها الخطر بين رجليها ، أمسكتْ النــيران بجلبابها ، فقد قــرَّرتْ أمُّها أن تعلنَ إســلامَها وتتزوج من "محمود البكري" ، ولم تجد الفتاة المحزونة ســوى أن تجري على الشيخ "صالح" تستجير به ، وحين جلــس مع أمهــا يحاول أن يثنيها عــن قرارها ولم يفلح اشترط عليها هي و"محمود" أن المنزل وتجارة المقدس "صبحي" لن يمسَّــهما أيُّ منهــما ، بعد حوار طويل مع "لوتس" في حضور الفتاة لم يُفلِحْ الشيخ أن يجعلها تغير رأيها ، فكان شرطه الأســاسيّ ألاَّ تمــسَّ مليماً من أموال المعلم "صبحــي" قدس الله روحــه ، فوافقت الزوجة ووافق "محمود" الذي لم تكن تنقصُه الأموال ، وأوكلت المــرأة الشــيخ "صالح" لينيــب عنهــا في رعاية مصالح ابنتها، ظل الشــيخ وأبناؤه يرعــون الفتاة التي نضجت وصار جمالها يُضرَب به المثل في البلدة كلها ، حتى تقدم لخطبتها "الخواجا حنا" ابن أخت الحكيم باشا يوسف، ربمــا كان أكثرُ ما أفرحَها في هذا الزواج هو أنها ســوف

تنتقل للحيــاة في درب النصارى بعيدًا عن هؤلاء الذين لطخوا شرف أبيها وجعلوها تعاني طوال حياتها ، فرحمة الشــيخ صالح وطيبته لم تغير في روحها شيئاً ، ولم تُنسِها التعاسة الدائمة التي عانتها من المسلمين ، صغارهم قبل كبارهم والتي انتهت بتلطيخ سمعة أبيها البيضاء.

***

الخواجة حنا

قــدم إلى قرية "اســمو العروس" إحــدى قرى مركز "ديرمــواس" بمحافظة المنيا وهو صغــير مع أمه ، ترك أســيوط بعد موت أبيه ، قدمت بــه الأم إلى أخواله في هــذه القريــة النائية من قــرى المنيا ، عمــل مع خاله الأكــبر الذي كان يعمل " حكيماً " ومســاعدَ طبيب في مستشفى ديرمواس العام ، وحين يعود إلى قريته يعمل طبيباً لأهل القرية الفقراء الذين لا يستطيعون الذهاب إلى المركز للعلاج .

كان "يوســف عدلي" لا يفارق الملاك الشــافي يديه، لم يذهــبْ إليه أحــد من أهــل القرية إلا وتحسَّــنتْ حالته ، مــن الطفل للعجوز ، وحتى نســاء القرية كُنَّ يفضلنه على الأطباء في المركز، والرجال يشعرون بالأمان والاطمئنان على نسائهم بين يديه ، يقدم كل الخدمات الطبية للقرية بداية من "ضرب الحقن" وتجبير الكسور

وانتهـاءً بوصف العلاج كأفضل طبيب، كان أهْلُ القرية يُطلِقــون عليه "الحكيم باشــا" ، لا أعــرف متى اقترن لقب الباشــا بالمرض ، مظهر الرجل المهندم والنظيف والابتسامة البشوش التي لا تفارق مُحيَّاه ، جعلت أهل القريــة يطمئنون إليــه ، كثيرٌ منهــم لم يكن يعرف أن اسمه "يوسف" ، فقد اقترن لقب "حكيم باشا" به منذ صغره .

كانــت مهمة الصبي "حنــا" أن يحمل حقيبة الخال المصنوعــة من خشــب طيب الرائحــة ، لونها الأبنوسي لا يدل بحال على أنهــا حقيبة للحقن ، تتكون الحقيبة من ثلاثة أرفــف متوالية، الــرفُّ الأول كانت تُرَصُّ فيه الأشرطــة اللاصقة وقطع الشــاش الأســطوانية البيضاء والقطن المحشو في كيس بلاستيكي أبيض، أما الرف الثاني فترقد فيه جميع الأدوية بداية من البرشام الريفو بورقته الخضراء والســلفا وكبســول أصفر للصداع وألم الأسنان وحبوب وردية مــدورة للحموضة والمغص وكل ما يؤلم في محيط تجويــف البطن ، أما الرفُّ الســفليّ فيُوضَع فيه طبق نحاسي مربع وفي جانبيه حلقتان مدورتان من

الناحيتين كيدين يمســك الإناء بهما ، كان الإناء النحاسي مُجهَّــزاً لغلي الحقنة ، لمْ تكن الحقن البلاســتيكية التي تُستعمَلُ لمرة واحدة قد اختُرِعَتْ بعدُ .

كانت مهمة الصبي أن يغلي الحقنة لخاله ، ويجهز له قطع القطن والشاش ، ويناوله الحبوب التي يرى الخال أنها مناســبة لحال المريض ، غالبــاً لم يكن يأخذ الباش حكيم "يوسف" ثمن معظم الأدوية ، وأحياناً كثيرة كان يتنازل عن ثمن ضربه للحقنة أو تجبيســه للمريض حين ينظر بعين الرحمة لمســتوى المريض الاقتصادي ، وغالباً أثرياء القريــة كانوا يذهبون بمرضاهــم لأطباء المركز ، ولا يلجؤون إليــه إلا حين يكتب الطبيب لمريضهم على مجموعة من الحقن ، ســاعتها يــأتي دور الباش حكيم "يوسف" .

رافق الصبيُّ خاله عشرَ ســنوات كاملــة ، كان أبناء الخــال جميعهم قد أكملــوا تعليمهــم في كلية الطب والهندســة ، واقتصرت مهنة الأب على ابن العمة الذي ســيصبح فيما بعد اسمه " الخواجة حنا " أو "الحكيم باشا الصغير" تمييزاً له عن الخال يوسف " الحكيم باشا

الكبير".

بعد موت الخال وزوجتِــه العجوز تنازل الأبناء لابن عمتهــم، الذي رعى والدهم في عجزه ، عن البيت ، فقد اســتقروا جميعــاً في المدينة ، ولم يعد منــزل الذكريات يهمهم كثيراً ، ورأوا أن ابن عمتهم وأمه العجوز أوْلى به.

كان البيت يتكون من جزأين ، الجزء الأول مجموعة من الغرف المتجاورة يتوســطها حوش كبير تلفه ســت كنبات تكسوها شلت قطنية مغطاة بالقطيفة الحمراء التي بهَتَ لونُها بمرور الســنوات ، يتوسط تلك الكنبات ســجادة كانت "دميانــة" تعتز بها كثــيراً ، ودائماً تقول بتفاخر : "سجادة عجمي ورثتها عن أبي" ، هناك جزء من الحوش لا يزيد عن عشرين متراً زرع فيه الخال "يوسف" مجموعة مختلفة ومميزة من الأشــجار الفوَّاحة، ما بين نعناع وريحان وشــجر مسك الليل الذي يضُوع بالمسك حين يرش بالماء ، وشــجرة كان الخال "يوســف" يطلق عليها "الست المستحية" فأوراقها تنطوي حينما يلسمها أحد، وكأنها تخجل ، كما يزرع وسط الشجيرات الملوخية الخضراء والجرجير والبقدونس ، وهذا الجزءُ من البيت

يفتح بابه على الشارع الجانبي أو "حارة النصارى" كما كان يسميها الناس.

أمَّا الجزءُ الثاني من المنزل فقد كان حجرة كبيرة بعرض البيت كله ، تفتح بباب منفصل على الشـــارع العمومي أو الشـــارع البحري ، هذه الحجرة كانت بمثابة العيادة الخارجية للباش حكيم ، كانت الحجرة مبلطة ببلاط كان يطلق عليه "الموزايكـــو" ، أما الحوائط ، فكانت مبلطة بسيراميك أبيض ينقســـم إلى مربعات صغيرة مثل كف اليد مثل الســـيراميك الذي كان يلف حوائط المستشفى المـــيري ، في جزء مـــن الحجرة ثمة ســـتارة بيضاء يعطي خلفهـــا الباش حكيم حقن العضـــل ، رائحة البنج تزكم الأنوف ، ويلف الحوائط صور كثيرة للعذراء وللمسيح والقديسين .

***

يابائع الطين بعْ لنا حنة، يا فاتح النار افتح لنا الجنة!

أنــا "فــردوس" طفلــة لم تعــرف من الحياة ســوى نظرة الفــزع في عيون أمي لأقل هبَّة هــواء تلوح أمام وجهــي، عالمي كله يــدور حول عرائــسي التي تصمت نهــاراً ، وأمارس الصخب والحياة معهم ليلاً ، في المســاء يحولهــم ملاك الرب إلى أطفــال مرحة صاخبة ، لم يكن مجرد خيال طفلة وحيدة ، أســتطيع أن أقســم صادقة بالمســيح ابن الله وأمه المقدســة أن ألعابي كلها كانت تنتظر حتى تغفو أمي وأبي ، ويحل ظلام تام على منزلنا، ثم ينقلــب المنزل إلى بيت للدمى المرحــة والصاخبة ، كل شــئ تدب فيه الحياة ، كل شئ يصير حيَّاً ومُفرحاً، حــين يحل الظلام أعيــش البهجة معهــم ، وحين تلوح تباشــير الصبح ويســمعون صوت الديكة على ســطوح أمي يعودون لأماكنهم ، يتحولون مرة أخرى إلى عرائسَ قطنيةٍ وأحصنةٍ من أقمشة ، وفرسان من قصاقيص أمي

وملابسي القديمة .

كثـيراً مـا أخبرتُ أمي عـن صخب ألعـابي وكثيراً ما تجاهلتْ كلامي ، وكنت أسـمعُها تحدث أبي عما أقول ، وتبكي ، تخبره أنها تخشى على سلامة عقلي ، وأبي يُخبرها أن هـذه خيالات أطفال، لكنها كانت تجلس أمام تمثال العـذراء الصغـير في حجرتها وتبكي ، وتطلـب منها أن تشـفي ابنتها الوحيدة من مرض لا تعرف كيف تسميه في دعائها .

في يومـي الدراسيّ الأول واجهـتُ الكثيرَ من الرعب والفزع من حركـة الأطفال الزائدة وأصواتهم المزعجة ، وحين قسَّمنا الأسـاتذة إلى مجموعات وفصول وجدتُ نفسي في فصل ملئ بالأولاد وعشرة بنات فقط يجلسـن خجـولات ومرتبـكات، لكنَّهن ينظرن نحـو الصبية في خجـل ويداريـن وجوههن ويضحكـن ، لم أكن أعرف لماذا الخجل ولماذا الضحك ، فجلسـتُ في آخر مقعد في الفصـل دونما تعبير على وجهي ، لم ينتبه أحد لوجودي، مرَّ أسـبوع تقريباً وأنا أجلـس في المقعد الأخير دون أن أثير انتباه أحد أو إزعاجه ، كنت أدعو المسـيح الحي أن

يديم عــليَّ نعمة اللارؤية التي أنعَمُ فيها ، كنت أدعوه في سرِّي أن يُعمِّــى الجميع عن وجودي حتى الأســاتذة الذين أمضوا الأسبوع الأول كله في ترويض هذه النمور الشرســة التي لا تمــل الحركة ، ولا تعــرف الهدوء ، أما الفتيات فكنَّ مشغولات في لفت أنظار الصغار لخجلهن المصطنع .

كنت أدعو "يسوع" أن أصيرَ كائناً غيرَ مرئيّ ، أن يمكنني التجــول عبر المكان دون أن أخــشى من صخب الصغار وعنفهم أو غضب المدرســين ، لكن كان من الواضح أن دعواتي ليسوع لم تكن كافية ، كان ينقصُها بعضُ الصدق وشــمعة أشــعلها أمام صورته المعلقة في حجرتي ، فقد انتبــه لي مدرس اللغة العربيــة، كان يعلم الأولاد كتابة حــرف الألف ، دار في الفصل بعيونــه الصقرية وصوته القادر عــلى إفزاع متنيح من مائة عــام أكل الدود كل عظامه ، كان الجميع في حالة من الصمت والرهبة وهو يدور بين الصفوف ، كل واحد يُهيِّئ نفسه لعصا غليظة تنــزل على الدرج الذي يجلــس أمامه ، وصوتُ المدرس يقول في قوة وحسم كافيين لخلع قلوبنا جميعاً :

ـ "قومي أنت ! قوم أنت!".

جملــة من كلمتــين كانت كفيلة بإذابــة جبل جليد بحالــه، وظلت عيناه تبحث ، وقدمــاه تحمله من أول الفصل إلى مقعدي المنزوي الأخير ، ثم قال :

ـ "اسمك إيه؟!"

يا "يســوع" أنقذني ، يا أمَّ المخلص نجِّيني من براثن الشرير، يا "مارجرجس" أنزل الســقف علينا جميعاً أو أرســل صاعقة نارية تلتهمه ، لكن "يســوع" لم يستمع إلى فجيعتي المحتومة ، وأمه المباركة لم تخلصني من بين يدي الشرير، و"مارجرجرس" لم ينقذني ، وقفتُ وساقاي يرتعشــان ، لســاني ابتلعه الوحش، صوتي اختفى تماماً ، أرد على صرخاته المتكررة ، لكنه لا يســمعني ، أنظر في عيون الصغار والصغيرات الذين أصابهم الرعب بصمت تام كأنَّ وحوشــاً سوف تلتهمهم إن خرج منهم صوت ، لا أجــد أيَّ دليل عــلى أنَّ صوتي يصل لأي منهم ، أعاود الإجابة :

ـ "اسمي فردوس !"

لكــن صوتي لا يغــادر حلقي ، ولا يقــترب حتى من شفتيّ ! ..

ـ "انطقي !"

أدور بعينــيّ الزائغتــين في الوجــوه ، أبحــث عمَّن يسمعني ، لكن من الواضح ألاَّ أحدَ يسمعني .

ـ "اقلبي إيديكي!"

العيون تنظر إليَّ بإشفاق وأنا أمُدُّ كفي بعد أن قلبته ووجَّهْتُ مفاصل أصابعي في مواجهة العصا الغليظة ، لم أعُدْ أشعر بشــئ ، روحي انسحبت مني ، عصاه لم تعد تؤثر فيّ ، لا دموع تســقط ولا آهات تعبر ، لم أعُدْ أتمنَّى سوى أمنية واحدة ، أن يسقط هذا الجسد الذي تحتله روحي تحت قدمي الشرير حتى يصمت ، يسكت عني، لكن لا شــئ أفلــح في إنقاذي حتى دقَّ جــرسُ الحصة ليُعلنَ انتهاء فترة العذاب .

***

أم يوحنا

كيف اســتطاعت "ســارة" التي لم تكــن تعرف عن الحياة ســوى الذهــاب للنادي ولعــب التنس ولم تكن تســمع ســوى الموســيقى الكلاســيك وحفلات الأوبرا أن تقيمَ لنفســها حياة في الصعيد؟ بــل وصل الأمر أن تكون موضع ثقة النســاء في محيطها، المســلمات قبل المســيحيات ، وصار لقب "الست" مقترناً دوماً باسمها، في البدء كانت ترتبك حين تقتحم عليها النســاء حياتها، لكنَّ روح المحبة التي تســكن البــاش حكيم عوَّدتها أن كلَّ من يخطو عتبة دارهم هو في حاجة إليهم، ومن ثمَّ لا يجب أن يقصروا في حق الإنسان الذي يحتاج للدعم، فروح الله التي تبــارك حياتهم تُوجب عليهم ألا تغيبَ الابتسامة عن وجوههم ، وهم يستقبلون الذين يدقون باب دارهم .

صارتْ كلُّ نساء القرية مُقرَّباتٍ من روحها ، وصارت

هي بمرور الوقت طبيبة ليس لأجسادهن فحسب ، بل طبيبة لمواجع أرواحهن أيضاً ، حوَّلت "سارة" غرفة من غــرف بيتها الكبير إلى معبد مُصغَّــر ، رصَّتْ فيه تماثيل للعذراء والمســيح والقديســين ، كانت تُشعِل الشموع في ليلــة الجمعة من كل أســبوع ، تهمس لأم المخلص وتجلس أمام تمثالها تصلي ، وحين يفرغ "يوســف" من عمله ينضم إليها ليصلي هو الآخر .

يومــاً إثر يوم صارت مصدر ثقة النســاء ، حتى التي تعاني من مرض نسائيّ ولا يقبل زوجُها أن يدَعَها تذهب للمركز للكشف عند طبيب كان في بيت "الست سارة" مُتَّسَعٌ لها ، صارت "سارة" واسطة بين النساء الموجوعات وزوجهــا الباش حكيم، وقبــل أن تضع ابنها الأول زارها الأب "بيشــيوي" وأخبرهــا عن مســتقبل الطفل الذي ســيكون معيناً ليد المسيح ، حين تخدل من كثرة المرور علي رؤوس المملكة ، طلب منها الأنبا أن تتعلم التمريض كما ينبغي ؛ لكي تُســعِدَ شــعب الله الواحد، استغربت جملة "شــعب الله الواحد" تلك ، فســألت عنها الأب، حين ذلك ظهرت الابتسامة التي تبعتها ضحكة ، أظهرت

نواجزه اللؤلؤية ، وقال: "كل خلق الله هم شــعب الله الواحد يا أم يوحنا" ، وضعت حملها في مستشفي فؤاد الأول بالقــرب من أمها في حضور "يوســف" الذي كان يعلــم أنَّ زوجته ، ســوف تســتقر في المحروســة بعض الوقت من أجل التدريب والدراسة في نفس المستشفي التى استقبلت ابنهم الأول .

مضتْ ســبعة أشهر على وجودها في المحروسة ، ممَّا جعــل الأقوال تــدور في القرية ؛ لتعــرف سرَّ الغياب ، لكنهــا عادت ذات صباح مُحمَّلــة بموكب من العطايا ، ظلَّ العاملــون يُدخِلونه إلى البيت حتــى نهاية اليوم ، في الصبــاح التالي عرف كثيرٌ من النســاء ســببَ الغياب بعد أن نِلنَ هداياهم الثمينة من "الســت سارة"، كان الحكيم باشا يرى ما تفعله زوجته ويباركه، ويدرك أنها تريد أن تكون على قدر ثقة النساء فيها .

***

ليس ثمة رجوع

انتهى ســفرُ الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، حين تأكد للحكيم باشــا أن ابن أخته قد ظفر بنفسه وعفته ، فكَّر أن يزوجه ، اختار لــه "دميانة" ابنة صديقه الذي توفى تاركاً فتاة صغيرة تخلت عنها أمُّها لتتزوج مسلماً ، كانت "دميانة" الفتاة الصغيرة تعيش في منزل أبيها قبلي البلد ، يرعاها الشيخ "صالح" الرجل الصوفيّ العامرُ قلبُه بمحبة الإنســانية ، فقرَّر أن ينقذ الفتــاة الجميلة من وضعها الحرج بين المســلمين ويزوجها مــن ابن أخته ، وخاصة أن الباش حكيم "يوسف" يعتبره الشعب المسيحي كبير المسيحيين في القرية ، اشترى لابن أخته منزلاً في شارعهم، درب النصارى ، فقد ارتبط مصيرُه بمصير الأسرة .

***

عن العروس

رُبَّمــا كان الراعــي لحزن عينيهــا ، دون أن يدري به أحد، هو نافخ الناي الحزين الذي زار القرية ذات صباح بعيــد ، هــذا الراعي الذي يقولون عنــه أنه ترك خلفه جملة من القلوب الحزينة، حين ترك القرية ذات مساء، وربما ســبب الحزن شــئٌ آخرُ لن نعرفه أبــداً ، ومهما حاول الســارد أن يأتي بحكايات مُــبرِرة لحزنها العميق، ســتظل الحقيقة صامتــة ، تماماً كدميانــة، تلك البنت القلقة طوال الوقــت ، لقد خُلقتْ ؛ لتمثل الخوف غير الطبيعي من كل شئ ، ربما نبتَ داخل قلبها طائر صغير لا يعدم رفة جناح أبداً ، وعند اللزوم يُهيِّج ما في القلب من راحة البال ، فلا شــئ يشبه الحياة ، "دميانة" ذات الروح المضطربــة ربَّما تعرَّضت لمؤامرة من الحياة ، هل حــدث ذلك؟! أو على وجه الدقة ما الذي حدث للبنت ذات الضمير؟! لقد كانت تخجل من أن تُعبِّر عن خوفها هذا مع زوجها ، كما أنها خبَّأت غيرتها من نساء القرية

اللاتي يتعامل معهن زوجها "الخواجة حنا" بحكم مهنته كممرض ، وكانت خشـيتها أكثرَ من نساء المسلمين ، لا تعرف ما الذي يجعل خوفها يتضاعف منهن ، رغم أنها عاشرتهن في بيت الشيخ الجليل "صالح" ، لكنها مع ذلك كانت تـرى أنَّهن أكثرُ جاذبية منهـا ، وأنهن ربما يلفتن نظر الممرض الشـاب ، كان "حنا" يقـدر قلق زوجته ، لكنه يمازحها ويخبرها أنه حتى لو فكر في نظرة وحيدة لامرأة مسلمة لن يسلم من زوجها فلا داعيَ لقلقها ، ثم يذكرها بحبه ليسوع المخلص وأنه أبداً لا يرتكب خطيَّة تُبعده عن الفردوس ، فعليها أن تهدأ وتقرَّ عيناً .

وكانـت المرأة تقلـق ، وتكتم خوفهـا ، حتى صارتْ امرأة مسـكونة بالفـزع ، وانعكس ذلك عـلى تربيتها لابنتها "فردوس"، حين كبرت صغيرتها، ودخلت المدرسة سـكنها الخوف أكثر ، اعترضت على دخولها المدرسـة ، لكن الأب الممتلئ أملاً ينتظر أن تحقق ابنته ما حلم به طوال عمره و تصير طبيبة حتى تعوضه عن فقدان ذلك الحلم الذي سـكنه منذ أن تعلـم التمريض من خاله، وتعامل مع أطباء كثيرين سـواء طبيب الوحدة الصحية

في القرية أو أطباء المستشفى العام في المركز، وزاد الأمل في قلبه حينما التحق أبناء خاله "يوسف" بكلية الطب، أصبح حلم "أبوالدكتورة" هو الحلم الأكيد والصحيح في قلبه ، والذي لم ينســه يوماً وهو يجلس أمام تمثال الأم المباركة يتوســل إليها أن تجعل "يسوع" يحقق أمله في ابنته .

لا يتذكر آخر مرة وجدها تبتسم ، القلق الدائم يأكل قلبهــا منذ أن تزوجها قبل ثلاثين عاماً ، هو تحمل بصبر ودأب كل تصرفاتهــا ، كلما همَّ أن يغادرها تذكر وصايا الرب "يسوع" بالمحبَّة ، فصبر عليها ، حين يأتيها في الليل ويريد أن يسكن آلام روحه في جسدها البضّ تنفر منه ، لا يعرف ماذا يفعل كي يشــعر بلحظات السعادة معها ، هو لا يعرف القسوة أبداً، لا يجيد ممارسة القسوة على أحد ، فما باله بامرأة يشــاركها السرير ، امرأة لا يخجل من ضعفه أمامها.

منــذ أن تزوجها وهي تتفنَّــن في تعذيبه ، هو رجلٌ ككل الرجال ، له حاجاته النفسية والجسدية ، حين كان يأتيها تســلم له جســدها دون روح أو عاطفة ، لم يكن

يعــرف كيف لامرأة بهذا الجــمال وتكون خالية من أي روح ، يفرغ فيها شــهوته دون متعة ثم يتركها ، لم تكن تشاركه أي لحظة من لحظات هذه المتعة .

في كل مــرة يفكر أن يصفعها على وجهها ، أن يصرخ فيهــا، يهزَّها ليتأكــد أنها حية ، لكنــه يتركها في صمت ويذهــب إلى حجرة ابنتــه ، ثمرة هذا الــزواج والرباط المقــدس الذي يجعله يتحمل كل هذا العناء في صمت، هو لا يعرف لمشــكلته حــلاً، لكنه طالما تمنــى موتها ، وطالما ضبط نفسه يفكر في الخلاص منها ، وحين يذهب إلى الكنيســة أو يأتيــه قــس اعترافه يحــكي له عن كل هذه الأفكار التي تــراوده ، لكن القس لا يوجد له حلاً أبــداً ، فقط يصبره ، ويذكره بما قاله "يســوع" ، ويعده بالفردوس والمكانة المميزة في الخلود .

لكن مــا لا يفهمُه القــس أن الفــردوس والخلود لا يُســكتان وحــوش الرغبة التي تمزق جســده لمَّا ترفضه حين يأتيها ، الفردوس والخلود لا يعوضان جفاف روحه للحظــة مبهجة أو جملة حانية يتمنَّاها منها ، الفردوس والخلود لا يعوضان المشــقة التي يعانيها حينما يذهب

إلى بيت من بيوت القرية يعالج امرأة ويشــعر بشهوته تتحــرك نحوها ، هو لا يعرف على وجه الدقة ما عصَمَه مــن علاقات كانت مُيسَّرة في وقتهــا هل هى رغبته في منزلة عليا بجانب "يسوع" في الفردوس أم الخوف من رجال المســلمين الذين لا يتصورون أبداً أن "حنا" ومن على شاكلته من المسلمين رجال لهم رغبات واشتهاءات تطــير النــوم من عيونهم حين تنكشــف عليهــم امرأة مسلمة ويشعرون بريحها وحرارة جسدها .

***

كما ينبغي لعاشق

كنتُ صغيرة حـين فاجئتني بقع الدماء ، هُرعْتُ إلى أمـي التي هدَّأت من رَوْعي رغـم أن وجهها كان مليئاً بالهلع أيضاً، كان ما يؤلمني هو ذلك المغص الذي أمسك بي طوال الأيام الثلاثة ، حتى أني تغيَّبتُ عن المدرسـة في ديرمـواس ، كان يوم الخميس هو يوم العودة ، كان "محمود" يقف تحت شجرة الصفصاف كعادته ينتظر، كانت الأضواء التي تتخلل أوراق الشـجرة تسـقط على وجهه ، فأظهـرت عينيه كما ينبغي لعاشـق، كنتُ قد كتبتُ عن رعشـة يدي ، حين لمسها وهو يناولني كتاب التاريـخ قبل أن تظهر بقع الدم في ملابسي بيوم، ربما لم يَدْر عن ارتعاشـة قلبي شيئاً ، ربما لم يعرف أنني أجلس في ظلام حجرتي أتخيل مواقف كثيرة سـتجمعنا ، أتخيل جملاً قوية سـوف أقولها ، أتخيـل كلاماً حلواً يقوله لي، وأنـا مغمضة العينين مرتعشـة الفؤاد ، وهـا أنا أمامه وجهـاً لوجه ، فأين تلك الجمـل التي كتبتها بإخلاص؟!

أيــن جملك أنت؟مر اليوم ، وتلك الأســئلة تحتل عقلي وقلبي ، في المســاء كنتُ أجلــس فوق الطبلية الموضوع عليها لمبة نمرة خمسة أراجع اللحظة الأولى التي تعرفتُ عليه فيها .

رحــتُ أكتب عــن أول مرة رأيتــه ، بعد أن وضعني مــدرس اللغة العربية في جحيــم يزيد عن جحيم الرب للشــيطان الــذي أوقع أبنــاء آدم في مسلســل الخطايا المســتمر ، يد ملاك حانٍ لمســت كتفي وروحي تغوص في الجحيم ، نســمات باردة أطفأت نيراناً تبخ من كفي الصغيرتين بعد أن نزلت عصا الأستاذ عليهما، قال كلمات يواسيني بها ، فهبَّ النسيم يلطف نيران روحي، وجفَّتْ الدموع وضاعت كل المرارة من حلقي، قلت له هامسة:

ـ "أنت معانا في الفصل؟!"

وابتســمت عينــاه الذهبيتــان وأضــاءت الملائكــة والقديســون وجهه ، ورقصت فراشــة بجانب النافذة، واحمــرَّت وجنتــا الفتاة وهمــس ملاك نــورانيّ بجوار قلبهــا، لم أكن أعرف أن أمي تتملاَّني عن كثب من بعيد مــن خلف ظلام ، لا أعرف كيف قــرأت أمي هواجسي

وأحلامي ،عرفت بغرامي السري ، جلســتْ ساهمة ، لم أفهم سبب صدمتها .

جلستْ طويلاً قبل أن تتنهَّد بعمق ، وتقول في صوت حزين:

ـ "لــو كلمتي هــذا الولد ثانية ســوف يغضب منك يسوع، ولن ينظر في وجهك في الفردوس".

لم أكــن أفهم كيف ســيُغضِبُ هذا "يســوع" ، لكن الفكــرة أرعبتني ، فلو غضب عني وأشــاح بوجهه عني كيف سأظل في الفردوس؟

لمــاذا لم تغضب أمي و"جرجس" ابــن جارتنا يلعب معي في ساحة الكنيسة بعد درس الأحد؟ لماذا لم يغضب "يســوع" وأنا أغني مع "جرجس" ترانيم الأم المقدسة "مريم العذراء" في مدرسة الأحد ؟! .

ليالٍ كثيرة حلمتُ فيها بيســوع يشــيح بوجهه عني ويذهــب، وأنا أجــري وراءه أطلب منــه أن يتوقف ، يتحدث إليّ ، لكنه يواصل المســير ويتركني ، وليالٍ كثيرة بكيتُ أمام صورة أمنا العذراء في الكنيسة ، لكنها كانت

تبكي دون أن تنظر إليّ !.

حاولــتُ أن أكتــب في الأيــام التاليــة ، لم تطاوعني الحروف، صورة الرب وهو يشــيح بوجهه عني تصيبني بالفزع ، فأتوقف عن الكتابة ، في المدرســة وقفتُ كثيراً أمامــه ، أحاول أن أتحدث، أحــاول أن أنظر في عيونه ، وهو يتأمل ربكتــي وينتظر أن أتحدث ، وحين يمل من صمتي ينظر لي في دهشة وينصرف دون كلام .

كانــت عينا "محمــود" الذهبيتان شــديدتا العمق تعطيانه سناً أكبرَ من سنه ، وقف أمامي بصمت ، مرَّت ثوانٍ قليلــة قبل أن يمُدَّ أصابعــه النحيلة ليلمس كفيَّ اللتين بلون الدم ، يد يســوع الرب تزيل عن روحي كل الألم ، توقفــت عــن النهنهة والبكاء المكتــوم ، حاولت أن أتنفــس بعمق ، حتى يهدأ قلبــي الذي يكاد يغادر ضلوعــي ، قال جملة بصوت عميق ومنخفض كأنه آتٍ من بئر ســحيق ، توقفت عن إصدار أي صوت وأنا أتوه في عينيــه الذهبيتين المضيئتين اللتين تتوســطان البشرة الســمراء ، جاءت كلمة : "معلــش متزعليش" ؛ لتكون ســلاماً يحيط بروحي ، مددتُ يدي لأمسح نهر الدموع

الذي كان يسِحُّ دون صوت وقلتُ له:

ـ "هو أنت معانا في الفصل؟"

قــال كلاماً كثيراً عن اســمه وأهله ، وأنــا لا أريد أن يتوقــف عــن الكلام ، فقط يســتمر في النظر إليّ ، كان الصبية والفتيات قد انطلقــوا للفناء في عاصفة صاخبة من المرح والبهجة ، وأنا ما أزال أقف في المسافة الطويلة التي تفصل الفصول عن الفناء وهو يقف أمامي يتحدث ويبتسم على اســتحياء ، لم أكن أريد للوقت أن ينتهي، لكــن مدرس الألعاب أتى إلينا غاضبــاً وأمرنا أن نذهب للفناء للعب مــع الأولاد ، فذهب هو خجلاً وعدتُ أنا للفصل ، جلســتُ في مقعدي الأخــير وأنا لا أعرف عن هذا الشاب الذي أرسله إليّ "يسوع" شيئاً ، بعد كل هذا يغضب المسيح لوجوده في حياتي؟

***

فــردوس

في مدرســة الأحد كانت "فردوس" تقف مع الكورس عــلى المسرح الصغير الذي يتوســط حجــرة متطرفة في الأبراشــية ، مجموعة مــن الدكك الخشــبية تتراص في الحجــرة ويقــف أمامها مــسرح مصنوع من خشــب الجميز، الأقــدام الصغيرة تدق على المسرح وهي تحكي حكايات عن الرعاة الصالحين الذين يرعون أرواح خراف الله الضالة من بني الإنســان ، تصور حيوات القديسين والشــهداء ، وتصور حياة يســوع ابن مريــم المباركة ، وهو يصارع الشيطان وكهنة يهود معاً حتى يتمكن من توصيل دعوة المحبة للخلق ، وقعت دوماً "فردوس" في غرام "مريم المجدلية" ، وكانت تحب تمثيل مشهد كبّ العطر على قدمي "يســوع" ، وتعشق عيونها المملوءة بالعشق وهي تتبعه من درب لشارع لقرية يدعو خراف الله ، ويهدي المبعدين من فردوســه ، ويشفي المرضى ، ويعالج علل الأرواح قبل الأجساد .

كانت تعشق صوت الرَّاهبة الصغيرة التي تأتيهم من الدير لتعلمهم العزف على آلات موسـيقية ، عشـقت صـوت الأرغـول ، وأحبت أنـين الناي ، كانـت تتطلع لعيـون الراهبة الصغيرة المملوءة حياة ولا تفهم تعليق أمها حين كانت تهمس وهي جالسـة تشاهد ابنتها مع الكورس وذلك الوجه الملائكي الخالص يعلمهم الموسيقى بنفس الحماس الذي يعلمهم به تعاليم "يسوع" ، كانت الأم تهمـس متحسرة : "خسـارتك في البتولية يا تريز" ، ولم تكـن تفهم "فـردوس" ما معنـى البتولية ، لكنها فهمت أنها لابد أنها شئٌ مُجحف يخطف وردة متفجرة بالحياة، ويحرمها من مباهجَ منتظرةٍ لمن في مثل جمالها، وصارت تشعر بنغزة كلما تكررت كلمة البتولية أمامها، فقـط كانت تتمنى أن تظل معهـم الراهبة "تريز" ولا تغادرهم بعد انتهاء درس الموسيقى .

صارت "فردوس" تنتظر يوم الأحد من كل أسـبوع ، ليس لذهابها إلى المدينة ومشـاهدة شـوارعها النظيفة ومحلاتهـا المغوية ، لم يكن سـبب هذا الشـغف كيس الحلوى المنتفخ الذي يخصها به أبوها ، بل كانت شغوفة

بتلــك الحياة المثيرة والمختلفة التي تعيشــها وهي تمثل القصص الدينية مع زملاء الكورس ، كانت تهوى قصص القديسين ، وتعشــق القيام بأدوار الشــهيدات الأوائل اللاتي ضحَّين بحياتهن من أجل نشر تعاليم "يسوع" .

صارت الساعات التي تقضيها مع الكورس في التمثيل والترانيم والغناء هى كل حياتها ، حياة افتراضية تعيش فيهــا وتنفصــل من خلالها عــن العالم ، تنــسى في تلك الســاعات صوت أمها المرتعش والخائف عليها من كل شــئ ، قلقها الدائم ، ومحاربة أعداء وهميين يتربصون بابنتها الوحيدة .

حين دخلــتْ المدرســة الابتدائيــة في قريتهم كانت مرتبكــة وخائفة وخاصة حين بــدأت تدرك الفرق بينها وبين زملائها في الفصل ، أمها منعتها من اللعب في الحارة مــع الأطفال ، وأبناء جدها "يوســف" كانوا أكبرَ منها ، فقد كبروا واستقروا في المركز بعد تخرجهم من الجامعة، ولم يبــقَ في العائلة إلا هي، مع من تلعب وأمّها تفرض عليها ألف قيد؟! كانت أصوات الأطفال تصيبها بالجنون وهــم يلعبون ويصرخون ويتبادلون الضحك والشــتائم

والســباب ، تذهــب إلى أمها باكية، فلا تلــينُ المرأة ولا تحِنُّ على طفلتها التي تعيــش وحدتها الجبرية ، وحين يأتي أبوها بعد يوم طويل وشــاق من اللفّ على منازل القريــة الكبيرة يداوي هذا ويضمد حروق وجروح ذاك لا يكون فيه نفس ولا روح لسماع شكوى ابنته اليومية، فقط يعِدُها أن يشــتري لهــا الحلويات يوم الأحد وهم في طريق ذهابهم للكنيســة ، ثم يدخل للنوم وقد هدَّه التعب .

كانت الصغيرة تقضي يومَهــا وليلها في رصِّ العرائس القطنيــة التي تصنعها لهــا أمها ، الأحصنة والفرســان الذيــن يركبون على ظهورها ، هــذا الحصان صنعته لها من فســتان العيد الفائت الذي تمــزق في يد أمها وهي تعصره بعد غسيله ، ظلت ساعة كاملة تشتم في صاحب المحــل في المدينة عديــم الذمــة والذي باعها قماشــاً (شــايط) لم يتحمــل أصابعها المضمومة على نســيجه، وأن العتــة لابدَّ أكلته قبــل أن يخدعها ويأخذ منها ثمناً كبيراً حين أنفق نصف ســاعة يقنعها بجمال الفيونكات على جانبيه والموديل الجديــد الذي لا ترتديه إلا بنات

البهوات والعمد ، ولونه الذي سيأكل من وجه صغيرتها (حتــة) ، مزقت الثــوب لتصنع لها حصاناً ولســانها لا يتوقف عن الدعاء على البائع بكل أنواع الدعوات التي تحملها ذاكرتها بداية من أن يحرق "يســوع" قلبه على تجارته وألا يبارك له فيما أخذ وانتهاءً بأن يسكن روحه الشــيطان ولا يتركــه إلا حين يلقي بــه إلى الجحيم مع الأشرار أمثاله الذين يستغلون امرأة ضعيفة لم ترد إلا أن تســعد ابنتها ، صنعت لها الفارس الذي سيعتلي صهوة الحصان من فســتان صغير لا تتذكــر متى توقفت عن ارتدائه ، ولأنَّ أمَّها تبخل بكل ملابســها التي تصغر على جســدها الذي ينمو بسرعة ، فقد أصبح معروفاً مصيرُ تلك الملابس ، كل فســتان وكل جلباب صالح لأن تصنع منه شــتى أنواع الألعاب للصغيرة، تصنف الأم الملابس والألوان حسب اللعبة المطلوبة، فالألوان الزاهية تذهب لعمل العرائس والنساء الصغيرات ، والألوان الأقل صخباً تكون من نصيب الفرسان والأحصنة ، أما أقمشة ملابس أبيها الداخلية فتكون مــن نصيب الكرات الكثيرة التي تصنعها لها .

تعطي لعرائسها وخيولها وفرسانها أسماء من تعرف من البشر ، وتتفنن في تعذيب البعض ، وتعامل البعض الآخر بتحنان وعطف ، صارت الدمى كلَّ عالمها المغلق، لذا حينما دخلت المدرسة كانت البدايات الأولى بمثابة التعذيب بالنسبة لها ، لا تعرف كيف تتعامل مع كل هذا الكم من الأطفال، أطفال من لحم ودم ، وليس مجرد دمى قطنية ، أطفال تغضب وتفرح ، تمارس القسوة والعنف ، وحوش صغيرة تستقبلها بصخب لم تتعوَّد عليه ، فالعرائس والدمى تجيد الصمت ، أما هؤلاء الصغار يشتعلون صخباً ، وهي تنكمش في جلدها كلما اقترب منها أحدُهم ، قلة هم من تعاطفوا مع صمتها ولاحظوا نظرة الهلع في عيونها .

في مساء يوم أحد ، وقد كانت عائدة من الكنيسة هي وأمُّها وأبوها ، وكانت قد أدت دور إحدى القديسات في مسرحية عن الاجتياح الروماني للشعب المسيحي ، ومطاردة المؤمنين وقتلهم وصلبهم ، لأول مرة تصفق لها أمها وكل الحاضرين أمام المسرح في الأبراشية ، كانت تشعر بخفة وسعادة بالغتين، فأمها أعجبت بأدائها

لدور القديسة ، كما أعجبت بصوتها العذب وهي تغني الترانيـم مع الصغار ، دخلت حجرتها ورصَّت عرائسـها ودُمَاها وبدأت تغني وترقص معهم بعد أن دبَّتْ فيهم الحياة .

فجـأة انفتح البـابُ السريّ في حجرتهـا ودخلت في الضياء الذي فجَّ ومـلأ الحجرة ، وخلف الضياء وجدت "مارجرجس" يعتلي صهوة فرس أشـقر، ويمسك في يده حربـة يصوبها نحو الشرير ، سـدد حربتـه ، فاخترقت قلب الشرير، حين رآها مدَّ يداً من نور نحوَها ، فذهبت إليه، واعتلت صهوة الفرس خلفه وسار بها حتى اختفى في سحاب أبيض يسد الأفق .

***

فخاخ عزازيل في مسألة الجسد

قبل سنوات وحين كان شاباً قويَّ البنية جميل المُحيَّا كانت النســاء يتعمدن أن يشــعلن نيرانه التي يُسكتها بترانيم المســيح، كانت النساء شهيات ومثيرات ، ونيرانه المختبئة تحت الجلد تستيقظ ، كان يكتِّم شوقه ويتركهن يمصمصن شفاههن على خيبته التي تتكرر أمام إغوائهن، ويذهب إليها ليطفئ شوقه في برودها الدائم .

لا يعــرف حلاً لمشــاكلهما معاً ولا أملَ لــه في زواج بأخــرى أو مفارقتها ، هي قــدَرَه وعليه أن يتعايش مع هــذا القــدر المحتوم، عليه أن ينسى نيرانــه ، لكن ما لا يســتطيع التعايش معه كآبتها الدائمة , كأنها قُدَّتْ من حزن وشجن ، ربما حبها لابنتها ورعايتها لها بروحها هو أكثر ما يصبره عليها ويجعله يتحمل كل هذه العذابات.

دائمــاً ما كان يــردد دعاءه ليســوع: "رب لا تضعني في تجربــة"، ودائماً مَّا نُجِّيَ من الاختبارات الصعبة التي

يمكن أن يتعرَّضَ لها بشر ، فروحُه التي تشــتاق لتواصل إنســانيّ يراه من حقه ، تتوقُ لأن تجدَ لها شريكاً حنوناً يختلــف عن "دميانــة" التي تلتفُّ بخيــوط من حرير تتشرنق بها ، ولا تسمح لنسمات المحبة أن تتسلل إليها، لكن من أين له بشريكةٍ للروح وهو لا يستطيعُ أن يترك "دميانة" إلا حين تصعد الروح إلى الأبدية؟!.

ورغمَ شــوقه لامرأةٍ تشاركه مشــاعرَه كان يخشى أن يُغضبَ "يســوع" ، ويضلَّ الطريق إلى مملكة الســماء والخلــود ، لكن "عزازيل" يكمُن لــه في دروب مظلمة وضيقــة ، يأبى إلاَّ أن يُوقِعَه في حبائل الخطيئة ، أرســل إليه أحدُ كبار القرية ، ليأتي لمعالجة زوجة ابنه المسافر، فالرجل يخشى على زوجة ابنــه التي تزوَّجها من عائلة كبــيرة تعتبر أحد الداعمين له في مجلس الشــعب فهى بحاجة لطبيب بعد ســفر ابنه ، ســعى الأب أن يتزوج ابنُــه من ابنة هذه العائلة ، ليكونوا عوناً له في الوصول إلى البرلمان ، تزوج الابن وبقي مع زوجته بضعة أسابيع، ثم ســافر للعمل في الخليج ، كل عام يأتي إليها ، يمكث بضعة أشــهر، ثم يتركها بعد أن يــترك بذرته في بطنها ،

فصار لها ثلاثة من الأبنـــاء وهي لم تتمتع برفقة زوجها أكثر من ثلاثة شـــهور طوال الســـنوات الثلاث التى هى عمر زواجها.

ذهـــب "حنا" إلى المريضة بنـــت الأكابر، وبدأ يعالج جرحهـــا الـــذي خلفته عمليـــة ولادة قيصريـــة ،تلوَّث الجـــرح، وظل فترة لا يتعـــافى ، رغم أنهـــا تواظب على أدويـــة الطبيبة في مستشـــفى خاص في ملـــوي ، كانت جلســـات العلاج تســـير بوتيرة يومية ، كان يذهب بعد العصر من كل يوم ، يغير الضمادة على الجرح، ويطهره، وكانت ثمة علاقة تبدأ في التشـــكل بين الخواجة بعيونه الزرقاء وشعره الأشقر، ورائحته الطيبة ، والمرأة المريضة، منـــذ اللحظة الأولى التي دخل فيها البيت وجمالُ المرأة قد اســـتولى على تركيزه ، كانت تســـأله عن استشارات لرضيعهـــا ، وهو ينتظر قليلاً بعـــد أن يطهر لها جرحها ريثما تـــأتي بالرضيع لـــيراه ، تعمَّد في أكـــثر من مرة أن يقترب بأنفاسه منها ، تنتبه لما يفعل، وترتبك ، ثم تهرب بعيونها المملوءة شجناً لا يعرف سببه غير غياب زوجها عنها ، فاســـم عائلتها ومكانتها وثرائها حتماً يتيح لها كل

شــئ ، فلا يتصور أن ثمة ما يمكن أن يحزنها سوى غياب زوجها عنها .

رسَــمَ الخواجة في ذهنه ـ وهو يقاوم فخاخ عزازيل التي تشعل روحه حين يقترب من المرأة ـ تخيلاً لما يمكن أن يحــدث لو تطــورت العلاقة بينه وبينهــا ، ولو انتبه أحــدٌ من أهل البيت لما يدور، شــعر بالفزع وهو يضع ســيناريوهات لما يمكن أن يحــدث ، فقرر أن يهرب من فــخ الغواية، وربما ما جعله قــادراً على الهروب هو أن المــرأة رغم إعجابها الظاهر بــه لم تبدر منها بادرة تدل على استعدادها لأن تستجيب لغوايته لها .

بحث "حنا" عن حُجَّة مناســبة يعتذر بها عن المجئ إليها، لكنه ظلَّ لســنوات يحمل كل تفاصيلها في روحه، رائحتهــا المميــزة ، صوتها الشــجيّ ، ومفــرق النَّهدين الذي ظهر حــين انزاحت الطرحة عن جســدها قليلاً ، كل تفاصيلها سكنته ، وعذبت روحه ، واحتلت مساحة الحلم في رأســه ، ولم تكن "دميانة" زوجتُه قادرة لحظة عــلى أن تزيح خيال المــرأة عنه، ليالٍ كثــيرة مرَّت كان يراها بجانبه على السرير، وحــين يأتي امرأته كان يراها

هــي ، ويهمس لها هي وحدهــا ، لكن الخوف والفزع من أن ينطق حتى باسمها في أكثر أوقاته حميمية جعله يقــوم بإزاحة كل ما يخصها من شــعوره ، مصيرُ عائلته مرتبط بأن يظلَّ حسَــنَ السمعة ، موضع ثقة المسلمين في هذا البلد ، فلو اهتزَّت هذه الصورة لن يعاني وحده، بل ستعاني معه كل عائلته .

ربما هذا مــا جعله حانياً على ابنتــه حين وقعت في غــرام "محمــود" ، كان يُقــدِّر معنى أن يــدقَّ القلب لشخص خاطئ، فحاول حماية ابنته من الغضب العارم الذي اجتــاح الجميع حين عرفت قصــة "فردوس" مع "محمود" ، غضب الكنيسة وغضب "دميانة" ، وغضب عائلــة محمود أيضاً ، حــاول أن يكون داعماً لصغيرته ، لكنه لم يستطع أن يساعدَها في حربها من أجل عشقها، فحــاول حمايتها بإبعادها إلى المنيا للدراســة، وقال لها حزيناً:

ـ "يــا ابنتي كُتِبَ علينا أن نعيش طوال الوقت حياة ليست لنا وليست من اختيارنا".

لم تكــن تعرف الفتاة العاشــقة أنَّ الأب يتحدث من

موضــع الألم ، لكنهــا قبلــت في النهاية أن تســمح لهم بســلبها عشقَها ، وأن تخضع لضغوط الكنيسة ، وترحل تاركــة روحَها في دروب قريتها وشــوارعها ، وحين قالتْ له :

ـ "هل سأعيش غريبة يا أبي هناك؟"

قال لها :

ـ "يــا ابنتي كلنا غرباء حتى ونحن في بيوتنا ، احملي وطنك في قلبك حيثما تحلين" .

***

درب العشق يبدأ بأنامل مرتعشة ، لضربة من قلب صدئ

قلتُ دوماً لمن يلومني على عشــقها أنَّ الأمرَ لم يكن بيدي ، لم يكن اختياري أن أعشــق فتاة من غير ديني ، كنتُ بعدُ صغيراً مُعتدَّاً بنفسه ، وفرِحاً بارتعاشة قلوب البنــات وأنا أحدثهن ، كنتُ أتعمَّــد أن أطيل النظر في عيونهــن ، ثم أبتســم واثقاً من تأثــيري عليهن ، بدأت علاقتنــا ونحــن صغار ، حتــماً لم يكن حبــاً ما جعلني أذهب إليها لألمس آثار الوجع على يديها بعد أن ضربها المــدرس، رغم الألم البادي على مُحيَّاهــا إلا أنَّها هدأت تماماً ووقفت تتحــدث معي ، فوجئتُ بصوتها الهامس والــذي يأتي من نقطة عميقة هنــاك ، لكنه كان كافياً ، لأن أبحث عنها كل يوم لأقضي لحيظات أتأمل شــعرَها المنســدل على كتفيهــا ، ووجههــا القمحــيّ ، وعينيها الســمراوين ، في هذا الوقت المبكــر من عمرينا لم أكن أسمي ما يحدث لنا حباً ، ربما لم أعطِه مسمى محددًا إلا

بعد أن انتقلنا للمرحلة الإعدادية ، بدأت ملامح جسدي تتغـير، وصرتُ في رأي أهلي رجلاً على ســت من البنات رزقــت بهن أمي ، كان أبي دوماً يردد أمامي أنني صرتُ رجــلاً ، وأمي تجعل أخواتي الــلاتي يكبرنني أن يخضعن لكل كلامــي ، ويحققن كل طلباتي دون مراجعة ، طبعًا فأنا الرجل كما تقول أمي لمن تعترض منهن .

الرجــل الذي صرتُــه أخبرني أن ما أشــعر بــه تجاه "فردوس" هو عشــق واضح وبيِّن ، عشق يشبه القصص التي كانت تقرؤها في مكتبة المدرسة ، لا أنسى أول مرة وصفنا ما نشعر به أنه غرام لن ينتهي بحبسها بالشهور خلف أسوار أبراشية ديرمواس ، كنَّا عائدين من مسابقة أوائل الطلبة ، وكانت هي و"سلوى" صديقتها المسلمة في فريقي ، فزنا بفضل تفوقها في الفيزياء والرياضيات ، ونحــنُ في طريق العودة طلبتُ منها أن نجلس قليلاً في الحديقة القريبة من المدرســة ، "سلوى" أعلنتْ فزعها من الفكرة وقررت أن تتركنا وتنصرف ، فوالدُها قد يقتلها إن عرف فقط أنها جلست في حديقة عامة بمفردها، فما بالنا لو جلســت مع شــاب وفتاة وصارت راعية لعلاقة

غرامية؟! وجدتها فرصة سانحة لأن أجلسَ معها بمفردي، وقبلتْ هي على الفور، جلسنا نتحدَّثُ عن كل لحظات حياتنــا التي مــرَّتْ بنا منذ أن رأيــتُ عيونها الباكية في المدرســة الابتدائية ، صرنا نســترجع لحظات الدهشــة الأولى التي كانت تحيطنا ونحن نتحدث ونلتقي ونسرق لحظات المتعة ، ونسرق نظرات العشــق الأولى ، أخبرتها أنني أعشقها وأخبرتني أنها لا تريد شيئاً سوى أن تكون في معيتي ، وهكذا تعاهدنا على العشــق الأبديّ ، قالت ضاحكة : "يمكن أن نوثــق عهودنا بالدماء ، وأن نجرح معصمينــا ونجعل دماءنا تختلــط" ، فبحثتُ حولي عن قطعة زجاج أو ســلك أو أي شئ حادّ لنجرح معصمينا ونخلط دماءنا ، فلم أجــد ، وتواعدنا أننا في أول موعد قــادم لنا لابدَّ أن نحمل مــا يمكننا من أن نأخذ قطرات من دماء نقســم بهــا على الحب الأبــدي ، وهكذا بدأ طريق العشق ، وهكذا بدأ أيضاً طريق العذاب بالنسبة لها ، إنني في النهاية رجل ، وديني يسمح لي أن أتزوجها، وأسرتي لن تعاديني طويلاً ، في النهاية لا بد سوف توافق على ارتباطنا لو وجدوني مُصِرَّاً على الأمر.

أما هــي فطريقُ الآلام قد بدأ بالفعل يوم أن عرفتْ الكنيسة بقصتنا .

أبي كان يــرى أنَّ قــوة الرجل في كتمان عشــقه ، في قدرته عــلى التحكم في مشــاعره ، لم أرَه يعبر يوماً عن مشــاعره تجاه أحد ، أمي تعــرف يقيناً أنه يحبُّها ، وأنه لا يرى في النساء إلا بسمتها الحنون ، وعطفها الفيَّاض ، وأنوثتها التي لم تفتقدها يوماً .

حتــى عندما توفى عــن عمتي زوجُهــا وهي صغيرة وجميلة وحفظتْ شرف العائلة لم يكن يعبر أبي لها عن امتنانه لحفظ شرف العائلة يوماً ولو بابتسامة عطوف، لكنــه في عدم وجودها وإن ذكر شرف النســاء يتحدث عن عمتي بفخر يليق بحرة ، وكنت أتســاءل دوماً لماذا لا يخبرها كم هو فخور بها؟! لماذا لا يخبر أمي بعشــقه لها؟! لمــاذا يرى التعبيرَ عن المشــاعر ضعفــاً ، وإظهار الحنــان هنا لا يليق بالرجال؟! مــاذا كان يضيرُه لو أنه قال لمن يحبونه أنه يحبهم ويقدرهم؟!.

حين عرفَ بعشقي لابنة "الخواجة حنا" جنَّ جنونُه، وتساءلتُ أنا ببراءة الشباب وحماستهم عن سبب موقفه

العنيــف مني ، وأخبرتُه أن الدين لم يمنع زواج المســلم من المســيحية ، وقال هو: "لا يليقُ بك أن تكون عاشقاً، أنت ابني ويجب أن تناسب أسرة عريقة تقف في ظهرك مثلما تقف عائلتك ، أما أن تتزوج من فتاة سوف تنفيها عائلتها وكنيستها وكل معارفها فكيف ستربي لك أبناءك وقد ضحَّت بكل محبيها من أجلك؟ ألا تخشى أن تضحي بــك لرجل آخر يكون أفضل منــك؟ لقد خانت ثقة كل من يحبها ألن تخون ثقتك يوماً ؟!" .

حساباته أربكتني ، لكن شغاف قلبي المملوءة بحبها لم تسمح لي أن أتوقفَ أمام كل ما قال وأتأمله ، قلتُ له بوضوح: "أنا مســؤول عن اختياري، وسوف أتحمل كل شــئ في سبيله ، ما عليه ســوى أن يحترم قراري ويدعم رغبتي".

قال : "إن ســمحت لها عائلتها بالزواج منك لن أقف ضــدك ، أنت رجل حر ، لكنني أيضاً لن أدافع عنك ولو قتلــك النصــارى". وقال : "أعرف أنهــم أضعف من أن يتعرضــوا لك ، لكنهم ســوف يمنعون عنــك ابنتهم ولو اضطروا لقتلهــا". ثم ذكرني بمركزنــا في البلد ، وعلاقتنا

بالحكومــة التــي يحرص على ألا يُفسِــدَها شــئ، وأن الحكومة ستقف بجانب الكنيسة ، لأنها لا تريد أن تشعل نيران الفتنة في البلد ، لذا حرصاً على مصالح العائلة مع الحكومة ورجال الأمن أرجو أن تعيد حساباتك ، سوف أتركك لتفكر في الموضوع برويَّة ، وإن وجدتك مُصِرَّاً على موقفك سأصمت ، وأقبل مُرغماً بالأمر.

وقد كان ما توقع أبي ، قامت الكنيســة بكل ما يمكن أن تفعلــه مع "فـــــردوس" حتى تغير رأيها ،أقاموا لها جلســات استماع وإقناع ، جلس معها تقريباً كل رهبان وقساوسة الكنيســة ، الأب الاعترافي لها كان ينفق معها ســاعات من التخويف والترهيب والإقناع والاســتمالة ، الأم امتنعــت عن الطعام وهددت بالانتحـــار ، والأب العطوف دخــل في حالة من الصمــت والاكتئاب وربما هذا ما أوجع قلبها وجعلها تتراجع عن قرارها ، تضرَّعت لأمها أن تســمح لها بمرة أخيرة تجلس معي قبل ذهابها للجامعة ، جلســتْ معي وذرفتْ كل دموعها ســاخنة ، وهــي ترجــوني ألا أعتقد أنها تنازلت عــن حبنا، وأن انكسار أبيها هو الشئ الوحيد الذي سلبها مقاومتها ، لم

يكن كلام الكنيسة ورجالها يهمها في شئ ، لم يكن تهديد أمهـا بالانتحار يؤثر فيها ، فقط انكسـار أبيها وانطفاء الحياة في عيونه ما جلعها تقرر الخضوع لأوامرهم .

ذهبـتُ للجامعة ، ولم أعد أعرف عنها شـيئاً سـوى أخبارهـا التـي تأتينـي نادراً مـن صديقتيهـا "ماريا" و"سلوى" ، وعرفتُ الفقد والألم لأول مرة في حياتي .

لم أعُدْ ذلك الشـاب الممتلئ حياة وصخباً ، بل صرتُ أكثرَ صمتاً وسكوناً ، أبي رأى أن التجربة أنضجتني ، ورأى أن ذلـك هو الخير كله ، فالرجـل الحكيم لا ينزعج من التجـارب التي تمر بابنه ، بـل يتيقن أنها تنضجه ، أمي الوحيدة التي كانت تـدرك عمق الفجيعة في قلبي ، لم تكن تـرى ميلي للصمت هـدوءاً أو حكمة ، بل كانت تـراه وجعاً ، ولم تتركني أبـداً لوحدتي ، بل كانت طوال الوقت تبحث عما يمكن أن يقربنا أو نتحدث فيه، كانت تحيطني بصخب أخوتي حتى لا أشعر بالوحدة .

الآن وأنـا زوج لابنـة عمي ، وأب لسـتة من الصبية والفتيات أتذكر تلك الأيام وأشـتاق للحظات أشعر فيها باشـتعال روحي ، إننـي أحن للحظـات معها تعيد لي

الإحســاس بالبهجة والدهشة والبكارة في المشاعر ، الآن أدعو لها في صلواتي أن تكون بخير، أن تســعد في حياتها الجديــدة ، ولا أعــرف هل يحمل مــلاك الرب دعواتي للسماء أم لا ، لأنني عرفتُ بمعاناتها مع زوجها !.

***

الأخــوة

مثل يوم الأحد يوم المباهج بالنسبة للأسرة ، هو يوم الخلاص الروحـــــي كما يصفه الأب ، وتجمع الأسرة كلها والاســتمتاع بعد القداس بتناول الغداء إما في الحديقة العامة في ديرمواس أو في منزل الأخ الأكبر للباش حكيم يوســف ، المعلم "توادروس عدلي" ، تاجر الغلال الذي ذاع صيتُه في مراكز ديرمواس وملوي وأبي قرقاص لعقود طويلة حتى أصبح أحد مراكز القوى المالية التي تعتمد عليها كنائس المنطقة ، تعد "ســارة" نفسها منذ الصباح الباكر، تجهز الزيارة الأسبوعية التي تحملها لبيت المعلم "توادروس" من خـــيرات القرية ، وخاصة في الأوقات التي لم يكن فيها مناســبة مقدســة للصوم ، تعرف كل فــرد من أسرة المعلم "توادرس" ماذا يحب وتجهزه له ، يوبخهــا الباش حكيم عــلى كل هذا التعب ويخبرها أن منزل أخيه لا يخلو من كل ما هذه الأشــياء ، وأن زوجة أخيــه لا تعرف ماذا تفعل في كل الزيارات والهدايا التي

تأتيهـا من محبي المعلم "تـوادروس" ، فتذهب به إلى الكهنة في الديـر وتطلب منهم أن يأخذوا حاجتهم مما تحمل إليهم والباقي يوزعونه على فقراء الأبراشية.

ترد "سارة" بعتاب على حكيم روحها :

ـ "ولـو كان عندهم تلال من الذهب ، هدايا الأحبة لا ترد يا باش حكيم".

فـلا يجد الرجل بيده إلا أن ينتظرها حتى تنتهي من ربـط الأجولة واللفائف التي تنشـغل بتجهيزها طوال الأسـبوع ، يتضرَّر الأبناء من كل هذا التأخير وكل هذه الأحـمال ، هم لا ينشـغلون بما تفكر فيـه أمهم ، كل ما يهمهم المتعة المنتظرة في كورال مدرسـة الأحد ومن بعدهـا النزهة النيليـة مع أبناء وبنـات عمهم التاجر المشهور في الأبراشية كلها.

كان ليوسـف وسـارة ثلاثة من الأبناء وابنة وحيدة، "يوحنـا" و"إبراهيم" و"إسـحق" و"فاتـن" ، حرصت عـلى أن يتعلموا أفضل تعليم ، ولم يخيب الأبناء أملها ، أصبح "يوحنا" مهندساً معمارياً و"إبراهيم" و"إسحق"

طبيبــين أما "فاتن" تخرجت من كلية الآداب والتحقت بكنيسة الأبراشية معلمة للصغار في مدرسة الأحد.

نشــأ الصغار مع أبنــاء عمِّهم ، يلتقــون يوم الأحد بعد القداس وترانيم كورس المدرســة الذي اشتركوا فيه جميعاً، يذهــب الصغار لحديقة الفيــلا في منزل العم الــثريّ يلعبــون ويمرحون ، وفي المســاء تعود الأسرة إلى القريــة راضية كل الرضــا ، فكل فــرد فيها حصل على مبتغــاه من الرحلة الأســبوعية ، وحــين التحق الأولاد بالمدرسة الثانوية في مركز ديرمواس اضطرَّ الأب أن يؤجر لهم شــقة حتى يعفيهم من مشــاق المواصلات للمركز كل صباح ، وحافظوا على هذه الشــقة سنوات الجامعة كلها ، فقد فضل الأب أن يشــتري لأبنائه سيارة يذهبون بهــا للجامعة في المنيا ويعودون للمبيت في شــقتهم في ديرمواس ، فقد كان يخشى عليهم التجمعات الشــبابية في المــدن الجامعية ، وكان يرى أن الشــباب يفســدون بعضهم البعض.

وفي الحقيقــة كان يخشى على أبنائه من الخروج على نظام الدولة حين وجدهم يحضرون اجتماعات لشــباب

مسـيحيّ في المنيا يحاولون أن يقيمـوا تجمعاً دينياً في مقابل التجمعات الدينية الإسلامية ، وخاصة التي كانت تنتمي للجماعة الإسـلامية وما لها من تاريخ عنيف ضد الدولـة بعامة والمسـيحيين بخاصة، كان ينـأى بأبنائه عن هذه المواجهات المحتملة لو أنهم اسـتمروا في هذا النشاط الذي رأوه هم حقا لهم.

وحين عـرف العم "تـوادروس" بنشـاط أبناء أخيه انزعج بشـدة ، فهـو لا يريد أي تصادمـات مع الدولة حرصاً على مصالحه ومصالح الشعب المسيحي ، فالدولة تحميهم وتضمن لهم حقوقهم، فلماذا يعرضون أنفسهم لمثل هذه الأنشطة التي لن يرضى عنها رجال الأمن؟!.

حين واجهَه ابنُ أخيه "يوحنا" صارخاً فيه أن الشعب المسيحي لا يأخذ حقه وأنه ممنوع من ممارسة السياسة ومن المناصب السـيادية ابتسـم العـم التاجر وقال له بهدوء :

ـ "يـا ابن أخي نحن نأخـذ كل حقوقنا، بل لنا نحن الشـوكة الأقوى، قوة المال يا ابن أخي أكبر من كل قوة، فلا تشغل بالك إلا بدراستك التي تضمن لك وضعاً جيداً

في المجتمع، ودَعْ المواجهة مع السـلطة لهؤلاء الذين لا يريدون أن يجتهدوا في عملهم ويبنوا مسـتقبلهم بذكاء ووعي".

وذكَّـره بوضعية اللوبي اليهـودي في أمريكا ، وكيف أنهم يؤثرون في كل سياسة أمريكا ، ويوجهونها لصالحهم بقوة المال.

وحين تخرج الأبناء سـافر المهندس "يوحنا" إلى كندا للعمل هناك بصحبة العم الثالث "ميخائيل" الذي هاجر إليها منذ سـنوات ، أما الطبيبان "إبراهيم" و"إسحق" فقد فتح كل منهما عيادة في ديرمواس وتزوَّجا من بنتين من بنات العم "توادروس" .

***

ماري كما لا يعرفه غيري

ثمَّــة حُلم كان يــتردَّد في ليلها وهي صغــيرة ، كانت "فــردوس" ترى نفســها وقــد دخلت مغــارة في جبل شــامخ وصامت ، ثم خرجت مــن الناحية الأخرى من بــاب المغارة التي تقطع الجبل بطولــه ليواجهها البحر ومراكب بيضاء تحلق فوقها النوارس، تجد نفســها وقد صارت شابة فتية، لكن في ملابس بيضاء مذهبة بصلبان متقاطعة ، وصورة القديس "ماري جرجس" تتحول إلى شــاب قوي يركب حصاناً مُجنَّحاً وحين تخرج رأسها من بــاب المغارة يمد يده يقيمها مــن انحناءة ظهرها وهي تخــرج من الباب ، ثم يضــع عصاه على كتفيها ويمنحها البركة، ثم يطير بحصانه المجنح ويتركها تنادي ، وقبل أن يختفي في السماء يلتفت برأسه نحوها ويبتسم .

ظــلَّ حُلمُ الراهبة بردائها الأبيــض وصلبانها المُذهَّبة يراودهــا طويــلاً ، وحــين دخلت الجامعــة نحت هذا

الحلم في عمق اللاوعي وعاشــت حياتها بطبيعية ، حين تعــود لقريتها في الإجازات تذهب في صحبة أبيها وأمها للكنيســة ، وفي المدينة الجامعية تقوم بصلواتها منفردة بعيداً عن أعين شريكات الحجرة المسلمات .

عانــتْ طويلاً في العــام الأول لأنها وضعت في حجرة مشتركة مع فتيات مســلمات ، فكن يعاملنها بتحفظ ، ويقطعن الكلام حين تدخل ، لم تكن تســتطيع أن تصلي أمامهن ، كأنها ترتكب عملاً محرماً ، نظراتهن الفضولية والمتسائلة وصمتها المطبق على تفاصيل حياتها الدينية جعلاها في حالة من القلق الدائم.

لا تعــرف لماذا لا يتعامل المســلمون مع دينهم بهذ الغموض، صلواتهم مُذاعة ، وقرآنهم في تفاصيل الحياة اليوميــة ، إذا دخلــتَ محلاً أو ركبتَ تاكســياً أو سرتَ في الشــارع أو حتى نمتَ في سريــرك يصلك قرآنهم عبر ميكرفونــات تحرمك النوم أحياناً ، أما تفاصيل وطقوس الدين المسيحيّ فهي سرٌّ من أسرار الكنيسة ، تمنَّتْ كثيراً أن تتحــدث عن دينها مثلما تفعل زميلاتها في الحجرة ، تمنَّت أن تُسْــمِعَهم آية من آيات الإنجيل مثلما تسمع

هي ليل نهار القرآن والأحاديث.

هــذا الغمــوض الــذي تعاملت به مــع دينها مثلما تعودت كمســيحية جعلهــا في حالة مــن القلق ، فقد تعودت أن تتلو صلوات المساء ، وأن تجلس أمام صورة العذراء تشــعل الشموع وتدعو ، أن تنادي "يسوع" له المجد في الســموات عند كل ضيــق ، الآن هي محاطة بســتة من العيون الفضولية المتلصصة، وغير قادرة على البوح بشئ ، كأنها تعتنق ديناً سرياً ، فماذا تفعل؟!.

قبل ذهابها للجامعة كانت تعتقد أنَّ المسلمين كلَّهم مثل الشيخ "صالح" وأسرته ، كانت تعتقد أن المسلمين كلهم "محمود" أو "سلوى" أو مدرسة اللغة العربية في المرحلة الإعدادية أو مدرســة اللغة الفرنسية في المرحلة الثانويــة ، لكنها وجدت وجهاً آخرَ للمســلمين لم تكن تتصور مدى قسوته .

تشــتاق لســلوى التي كانت تفعل المســتحيل حتى تدعمها وتتواجد معها ، كانت تتحمل رعب أمها وفزعها من كل ما هو خارج ذاتها وصغيرتها ، حين كانت تذهب إلى بيت "سلوى" مع أبيها تعيش لحظات سعادة غامرة.

في يوم الحضرة التي كان يُقيمها الشـيخ "صالح"جد "سلوى" كان "الخواجة حنا" أول المدعوين والذاهبين، ليشـارك في الحضرة النورانية ، وتذهب معه "فردوس" رغـم رفض الأم لذهابها ، كانـت الأم تهدد الأب وابنته بكل أشـكال التهديد المتاحة ، لكنه يتغاضى عن غضب امرأتـه المحتمل ، ويقرر أن يُفـرح صغيرَته ، ويقول في نفسـه : " أفرح صغيرتي ويسـوع يعينني على تحمل غضب دميانة الذي قد يسـتمر لأيام" ، وبالفعل يأخذ "فـردوس" معه ، غالبـاً كانت "فـردوس" تجلس مع "سـلوى" وبقيـة الصغيرات خلف البـاب الذي يفصل المقعد البحـري ـ حيثُ قاعة الذكر ـ عن بقية المنزل ، يشاهدن الحضرة والذكر ، وكانت تقلد الذاكرين الذين تتمايل أجسادهم على الأنغام التي يرددونها حين تعود للمنزل فرحة ومنتشـية ، وكانت سـوف تسـأل أباها : لماذا لا يوجد حضرة وذكر عندهم في الكنيسة ؟ فيبتسم ويخبرها أن لكل دين طقوسَه التي تميزه .

وهي واقفة بين الصغيرات كانت "سـلوى" ترد على كل من يسـأل عنها : "دي فـردوس بنت عمي حنا " ،

لكن ابنة عم سلوى كانت تعترض على وصف نصراني بـ "عمـــي حنا" وتقول لها غاضبـــة : "يعني هو عمك زي عمك عبد الرحيم كده؟" فترد "ســـلوى" بثقة وهدوء : "أيوه عمي حتى اسألي جدي صالح" ، هي تعرفُ مسبقاً كيف ســـيردُّ جدها على حفيدته الأخـــرى ، لذا صمتت الصغيرة دون أن تبديَ اعتراضاً بعد ســـماع اسم جدها، فهـــي تعرف كيف يعاقبها لو ســـمعها تتحدث بطائفية عن أي أحد .

***

ماريا

أنــا "ماريا" صديقة "فردوس" ، وُلِــدْتُ في القاهرة، لكــنَّ عمل أبي المهنــدس الزراعي يحتــم عليه الانتقال من محافظة لأخرى من جنوب مصر لشــمالها ، لم نكن نمكث في بلد أكثر من عام حتى ننتقل لآخر، وكنتُ طوال الترحال المستمر أتركُ بعض روحي في المكان الذي ننتقل منــه ، كانت روحي تظل عالقــة في الطرقات ، دموعي التــي أذرفها وأنا راحلــة لأغراب جدُد تظــل تؤرقني ، صديقاتي وزمــلائي الذين أبدأ في التآلــف معهم يبكون لأجــلي ، كل عام يمــر على قلبي أغــراب جدد يصيرون أحبة، ثم أرحل عنهم .

وفي كل غربــة جديــدة كنــتُ أعــاني مــن العيون الفضوليــة التــي تقتحمنــي ، ويكون اســمي الجديد "البنــت النصرانيــة بنت المفتش" ، لم أكــن أفهم بدقة ماذا يعنون بالنصرانية، وحين تفهمني أمي أن النصرانية

ليســت سُبَّة حين تجد دموعي تسِحّ، وأننا نُسمَّى هكذا نسبة للمســيح ابن الناصرة في فلسطين كنتُ أقسم لها أن الأطفال ينادونني بها كأنهم يقصدون مســبَّتي ، ثم يمــر الوقت ونصير أصدقاءً ، ونلعــب جميعاً معاً ، وأنا أعلمهم الكثير من الألعــاب الجديدة التي لا يعرفونها، ويصير اســمي "ماريا بنت المفتش" ، ولا أعود أســمع "البنت النصرانية" .

في محافظــات الدلتا لم أكنْ أعاني كثيراً من التصنيف النصراني والمسلم ، فكلنا نلعب سويَّاً ، وكلنا أطفال تمارس البهجــة ، لكن بمجرد وصولي للجنوب ، كان الأمرُ مؤلماً، فالأطفال يتجنبونني، لم أكن أجدُ أحداً ألعبُ معه، حين وصلنا لبلدة "فردوس" في جنوب المنيا كان المنزل الذي منحتــه الحكومة لأبي المفتش في الــبراري ، بالقرب من الحقول التي ســيشرف عليها كمهنــدس زراعي ، كنتُ أشعر بوحدة وعزلة شــديدتين ، كنت أصْغُرُ "فردوس" بعــام واحد ، فلم تكن معي في الفصل نفســه ، لكنني أحببتُها وتوطدت علاقتنا ، كنتُ أسرع إليها في الفسحة كأنني أسرع إلى أمــي ، أحتمي بها من اضطهاد البنات

لي ، شــعري الأصفر الطويــل كان يثير حفيظتهن ، وكنَّ يتعمــدن الســخرية مني ، وخاصة حــين يجدن الأولاد يتقربــون مني أو يحاولون التحــدث إليّ ، البنات يقلن في وجهي دون مواربة: أن شعري الأصفر الذي أتعاجب به ـ كما يقلن ـ حتماً ملئٌ بالحشرات ، وأن النصارى لا يســتعملون المياه مثل المسلمين، وأن النصارى رائحتهم مقرفة ، وكانت "فــردوس" تغيظهن ، وتقول لي : "هُنَّ غيورات منكِ لجمالكِ الشديد ، فلا تهتمي بكلامهن" .

كنتُ أحاول الذهاب إلى منزل "فردوس" ؛ لأنني أشعُر بالوحدة في منزلنا البعيد عن مساكن القرية ، لكن أمَّها كانت مُربكة بالنســبة لي ، أتفهَّم خوفها الشــديد على ابنتها من المســلمين ، لكنني مســيحية مثلهم ، فلماذا تنظــر لي بريبة طوال الوقت؟ ولمــاذا ترفض أن تذهب معي "فردوس" إلى منزلنا؟ ما الذي يضيرها لوابتسمت في وجهي مرة ؟ ألســتُ مثلها أذهب للكنيسة وأعترف للكاهن وأغني الترانيم مع الراهبات في مدرســة الأحد؟ مــا الذي فيّ مختلف ومريب حتــى تعاملني بكل هذه القسوة ؟

حين يذهــبُ معي عمي "حنا" والــد "فردوس" إلى منزلنا حتى لا أعود بمفردي وأتعرض للمخاطر ـ كما كان يقول لها ـ كانت تغضب بشدة ، وتقسم بالمسيح الحيّ أنهــا لن يهدأ لها بال حتــى تقطع "فردوس" علاقتها بي ، وكثيراً ما سمعتُها تقول له في عنف وغضب مكتومين:

ـ "تلاقيك عايز تروح توصلها علشــان تبص لك بصة على مرات المفتش".

ولم أكُــنْ أفهمُ ما دخلُ أمــي في غضبها ، وخاصة أن عمي "حنا" كان يوصلني حتى باب البيت ، ثم يذهب، حتى قبل أن يفتح أبي الباب ، لم يصادف أبداً أن خرجت أمــي أثناء وجــوده ، كان يوصلني ويقــف بعيداً حتى يخــرج أبي يأخذني من يدي ويحييه من بعيد ، وكثيراً ما أقســم عليه أبي أن يأتي ، لكنه أبداً لم يفعل ، ولم يدخل عتبــة بيتنا ، فلماذا تزج الخالة "دميانة" اســم أمي في شجارها مع زوجها ؟!.

كثيراً ما حاولتُ أن أتجنب الذهاب إلى بيت "فردوس"، لكن دموعها الســاخنة وهي ترجــوني أن أذهب إليها ، وأن أتحمل تعليقات أمها المريبة دوماً تجعلني أتراجع

عن قراري، هي لا تسـمح لها بالخـــروج مطلقاً ، لا مجال للخروج إلا للمدرسـة أو للكنيسة ، ما سوى ذلك فهـو غير مطروح أصلاً، كما أنهـا لا صداقات لها غيري، ليس لأنني البنت المسـيحية الوحيدة في المدرسـة، بل لأننـي البنت الوحيدة التي يمكـن لها أن تتحمل علاقة معقدة ومربكة مع امرأة تعادي العالم كله دون استثناء، وتتعامل بقسوة مع الجميع ، لكنها في حضرة ابنتها تصير مثل عصفور يحنو على صغاره ويحاول أن يحميهم من أي مخاطر تحيط بهم ، لا أحد يعرف كيف تكون بهذه القسوة ضد العالم ، وهذه الرقة والعذوبة مع ابنتها .

أمـي كانـت تتفهَّم علاقتـي بفـردوس ولا تطالب بالتعامل بالمِثل ، لم ترفض لي يوماً طلباً بأن أذهبَ إليها في بيتهـا ، كـما أنَّها لم تقلْ لي يومـاً : "لماذا لا تأتي هي لزيارتـك مثلما تفعلـين"، أبي يخشى عـليَّ من الرجوع بمفردي وقطع المسـافة من بيـت "فردوس" حتى بيتنا على أطـراف القرية ، لكن الدور الـذي يقوم به عمي "حنا" يرضيه ويجعله يوافق على ذهابي .

حين كنتُ أقرأ مذكرات "فـردوس" التي تكتبُها عن

علاقتها بزميلها المسـلم كنتُ أشـفقُ عليها ، وأحذرها من وقوع هذه المذكرات المكتوبة بخط مرتعش وقلب يذوب عشـقاً في يد خالتي "دميانـة" ، لكن "فردوس" ترى أن هذا البوح يريحها ، وأنها لن تستطيعَ أن تتحمل ما يحدث لها من ارتباكات الحياة إلا إذا كتبتْ ما تشعر به .

كل يوم يمر أتعلق بهذه البلد أكثر ، كل الأولاد والبنات كانوا يتعاملون معي بحذر وتلصص والآن صار الجميعُ أصدقـائي ، فلم أعد "النصرانية ابنة المفتش" ، بل صرتُ "ماريا هـارفي"، كنتُ أعاني كثيراً من الإقصاء من زملائي وزميلاتي المسلمين ، لكنني اسـتطعتُ أن أقتحمهم، أن أفرض وجودي عليهـم ، حين كنتُ أتعرض لموقف أجد فيه عنصرية ضدي كنت أواجه الشخص بوضوح ، أنظر في عينيـه مباشرة وأخـبره أن الله خلقنـا جميعاً بشراً كاملـين لا أحد أفضل من الآخر بدينـه أو بماله أو بأي شـئ آخر، كنت أجد نفوراً أحياناً وقسوة وبُعداً أحيانًا أخـرى ، لكنني في النهاية اسـتطعتُ أن أفرض وجودي الإنسانيّ عليهم دون تصنيف لا يليق بإنسانيتنا.

في البدء كنتُ أعــود للبيت باكية ، وأحكي لأمي وأبي عن سوء المعاملة من الجميع ، فالجميع يقسو عليّ، مرة لأننـــي غريبة عن البلد ، وثانية لأنني مســيحية ، وأمي تقول: "الإنســان يكره ما يجهل فاعرفي كيف تقتحمين هؤلاء الذين يعذبونك بمعاملتهم القاسية" ، فقررتُ أن أدرس كل واحــد وواحــدة في الفصــل ، ليس في الفصل فقط، بل كل من كنتُ مضطرة للتعامل معهم ، وحاولتُ أن أجد مدخلاً لكل منهم ، استطعتُ بعد جهد كبير أن أصير صديقة لهم ، أن أنتزع منهم اعترافاً بإنسانيتي .

لم أكــن أعرفُ كيف أخفف عن "فــردوس" ، لكنني اعتقدتُ أن الدعم النفــسي هو ما يمكن أن أقدمه لها، كان "محمــود" زميلهــا في الفصل هو الوحيــد القادر على أن يجعل روحها تبتســم ، في الفســحة المدرســية كنــا نجلس أنا وهي في الركن القصِيّ من الفناء ، نراقب الجميــع ، أطلق أنا تعليقاتي الســاخرة على كل زملائنا، وأصِفُهــم بأوصاف لو ســمعوها منــي لعلقوني في فناء المدرســة وتحت سمع وبصر المدرســين ، وهي تكتفي

بالابتسـامة الواهنة ، لكن حين يظهـر "محمود" وهو يقف بين زملائه تزوغ عيناهـا، تهم بالاقتراب منه ، ثم تتراجع ، أهمس لها: "اهدأي !" فلا تسـتمع لهمساتي ، وتقـوم ، وتجلس دون أن تحدد لنفسـها هدفاً ، كنتُ أفكر وهي على هذه الحالة أنني لن أقع في الحب يوماً، إذا كان الحـب يفعل فينا ما يفعـل، ويجعلنا مرتعشي الفـؤاد ومرتبكين طوال الوقـت ، فلماذا نحب؟ ترى لو أنها أحبَّت مسـيحيَّاً مثلها هل كانت سـتعاني كل هذه المعاناة ؟ هل كان الجميع سوف يدينونها بهذا الشكل ، أم أن الجميع سوف يباركون ما تفعل؟ وهل نختار من تدق من أجلهم قلوبنا ؟

كنـا ننتقل من عام إلى عام سـوياً ، لأول مرة منذ أن وعيت وعرفت معنى التنقل والاسـتقرار أعيش في بلد واحـد كل هذه المـدة ، كأنَّ كل الدعوات التي دعوتها أمام تمثال المقدسـة أم المسيح اسـتُجيبَ لها ، لا بد أن كل شمعاتي التي أشعلتها كانت مباركة ، فلم ينتقل أبي ، بل استقرَّ بنا المقام في هذا البلد ، وصرتُ أنا و"فردوس"

شريكتين في كل أمر ، شـــاركتني أسرارَ عشـــقها لمحمود، وشـــاركتُها شـــوقي لابن خالتي في إيطاليـــا الذي لم أره منذ أن جاء مع وفد ســـياحي إلى الأقصر ، ثم نزل عندنا ضيفـــاً، أنا لم أذهب إلى إيطاليا منذ أن كنتُ في العاشرة، واقتصرت العلاقـــة مع خالتي وأبنائهـــا على الاتصالات الهاتفية ، وأخيراً قدم "أنطونيو" ابن خالتي إلى مصر.

لم أتأكـــد يقيناً من رغبتي في الســـفر معه ، أبي وأمي متحمســـان للفكرة ، يريدان أن يطمئنا علي أن أذهب هنـــاك، أكمـــل تعليمـــي الجامعـــيّ ، وأتـــزوج من ابن خالتـــي، قلبي لم يدق لأحد من قبـــل، لكنني حين رأيتُه بعد كل هذه الســـنوات شـــعرتُ بلهفـــة روحي عليه ، وعـــلى الجلوس معه طوال الوقت ، الاســـتماع لحكاياته المُبهـــرة عن فتيات رومـــا وجميلاتها ، وعـــن قصور ما تزال تلوح في الذاكرة ، ومســـارح أوبرات ، عن موسيقى ســـتعزف لي ورقصات سوف أشاركه فيها ، إنني سعيدة هنا وســـط زملائي وجيراني من المســـلمين والمسيحيين ، إننـــي فرحة بالأدوار التي أؤديها على مسرح الإبراشـــية

المتواضــع مقارنة بمســارح روما ، إنني حتــماً لن أجد صديقــة مخلصة مثل "فــردوس" ولا فتيات يحتجن لي مثلما يحدث هنا ، لا أعرف هل رفضي للســفر وتمسكي بالبقاء في هذا البلد يعود إلى حاجتي لكل هؤلاء الذين منحوني محبتهــم وثقتهم أم حاجتهــم إليّ لأحقق لهم بعض التوازن الذي يفقدونه حين يُقصي بعضُهم بعضاً، فالمســلمون ينفون المســيحيين وحقوقهــم في بلدهم ، وكذلك يفعل المسيحيون ، فينعزلون ، بل وينظرون إلى المســلمين باعتبارهم ضيوفاً عليهم سرقوا منهم بلدهم في غفلة من التاريخ .

حســمتُ أمــري ، واخــترت الاســتقرار في مصر، في الجنــوب ، بل في قرية صغيرة مــن قرى مركز ديرمواس بالمنيــا ، اخترت أن أبقى مع من أحب ، وقلبي ربما يجد يوماً من يدق له، رحل ابن خالتي كســيرَ الخاطر ، لكنه تفهــم تماماً موقفــي ، ووعدني أنه ســيأتي من أجلي في أقــرب فرصة ، بكت أمي لرحيله، فهي تشــتاق لبلدها وأخوتها، ومجئ "أنطونيو" أعاد لها كل ذكرياتها هناك،

لكنها فرحت بعدم رحيلي رغم تحمســها للأمر، فقلبُها الرهيف لن يتحمل بُعدي عنها كما قالت لأنطونيو وهي تودعه، بعــد رحيله عدتُ إلى ســيرتي الأولى مع زملائي الذين كانوا ينتقلون معي من عام لعام حتى صرنا على أعتاب الجامعة.

***

كان البئر عميقاً وبارداً

حين تسـلَّمتُ مفتـاح الحجرة في الـدور الرابع من المدينـة الجامعيـة للبنات لم أكن متخوفـة من البنات اللاتي سوف يشاركنني الحجرة ، لم أهتم كثيراً بأي سؤال عن دينهـن ، أخذتُ حقائبي وصعدتُ لأعلى وكنت قد وصلـتُ مبكراً ، لم تمر سـاعات بعـد أن رتبت ملابسي في أحـد الدواليب واخترتُ السريـر الأعلى ، وجدتُ في الحجرة سريرين متقابلين كل سرير يتكون من دورين ، ودولاباً كبيراً بأربع ضلف ، فهمتُ أنه سـيكون معي في الحجرة ثلاث بنات أخريات .

الطبيعيُّ أنَّ من تحضر أولاً تختار الأفضل ، والأفضل في حالتـي هـذه هو سريـر الـدور الأول القريب من الشرفـة ، لكنني فضَّلتُ العزلة ، فضَّلتُ أن أختارَ سريراً مـن أسِرَّة الدور الثاني الذي نصعد إليه بسُـلَّم حديديّ مثبَّـت في ظهر السرير ، ربما رغبة في عزلة تفرضها حالة

القلق والترقب التي تحيطني حين أجلس مع مسلمات من نوعية الفتيات اللاتي سوف يشاركنني المعيشة في هذه الحجرة الضيقة ، وربما اخترتُ الأسوأ حتى لا يكون مطمعاً من أحد وأجد فتاة تفرض سلطتها وتجبرني على تركه ، فقلتُ : "لأجنب نفسي أي حرج أو شعور بألم" ، واخترتُ السرير الأبعد .

جلستُ مترقبة دخول الفتيات ، في اليوم التالي دخلتْ أول فتاة تبدو من أصول ريفية مثلي ، وترتدي طرحة طويلة على فستان واسع وطويل ، قالت لي في لغة فصيحة : "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" ، فرددتُ بابتسامة : "وعليكم السلام" ، سألتني عن اسمي فقلتُ: "فردوس" ، فأردفتْ :

- "أيوه يعني فردوس إيه؟"

ابتسمتُ لأنني أعرف أن اسم "فردوس" تُسمَّى به الفتيات مسلمات ومسيحيات ، وحتماً هي تريد أن تحدد هويتي الدينية من اسمي ، فرغم أنها وجدتني غيرَ محجبة ، لكن حتماً هناك بنات مسلمات غير محجبات فلجأت لحيلة الاسم ، قلتُ:

ـ "فردوس حنا عبد المسيح" .

غارت الابتسـامة من وجهها تمامـاً ، وقالت بصوت كأنها تشده بحبال من بئر عميق:

ـ "أهلاً وسهلاً" .

وجلستْ صامتة تماماً ، كأنها نزل عليها سهم الله .

ثم دخلتْ البنتان الأخريان ، وكانتا أيضاً مسـلمتين، لكن مظهرهما عصريّ ، وملابسهما تدلان على أنهما من وسط اجتماعي مختلف ، وبدأنا التعارف ، لكنَّ الفتاتين أصيبتـا بخيبة أمل حين عرفتا أنني مسـيحية ، قلتُ في نفسي : "سـوف يبدأ الآن القلـق والحذر" ، كنتُ أُمنِّي نفسي بعلاقة ودية مع زميلات حجرتي ، لكن من الواضح أنهن غير مستريحات لوجودي .

مضـتْ الحياة رتيبة ، لم يكـن يدور بيننا أي حديث تقريبـاً غير إلقاء التحيـة في الدخول والخـروج ، وإذا تصادف وجودنا نحن الأربعـة في الحجرة كن يتعاملن معي بحذر وخاصة إذا فتحت أي واحدة منهن أي كلام يخص الأديان ، وكثـيراً ما كانت تقول إحداهن : " دينا

يقول كذا ، وأنتوا عندكـم زينا كده؟!" وغالباً كنتُ أرد بدفـاع لم يطالبني به أحـد : "كل الأديان من عند الله والمحرم عندكم محرم عندنا" .

وصرتُ تقريباً كلما اجتمعتُ معهن أدافع عن نفسي وعن دينـي باعتباري متهمـة ، وكأنَّ ديني يبيح العهر والفحش ، فـكل تحريم أو حث على فضيلة يأتي ذكره، أجـد إحداهن تسـألني : "وأنتوا كـمان عندكم كده؟" وفي كل مرة أحاول أن أوضح لهن أن ديني دين السـلام والمحبـة ، وأنه يحرم الزنا مثلما يفعل الدين الإسـلامي ويحـرم الكذب والفواحش مثل دينهـن تماماً ، وفي كل مرة يقلن بغير حماس:

ـ "والله؟ فعلا؟ طيب جميل!" .

ذهبتُ في رحلة مـع الجامعة لزيارة مدينة القاهرة، زُرْنـا معالم سـياحية من مـصر الفرعونية والإسـلامية والقبطية، كما ذهبنا إلى مجمع الأديان في مصر القديمة، وطلبت من المشرفة أن أذهب لزيارة دير "مارجرجس"، كان يـوم ذهابي يوافق ترسـيم اثنتى عشر راهبة ، كان قداسـة البابا بعد أن صلى صلاة القـداس الإلهي يقوم

بطقس ترسـيم الراهبات ، وكانت "تماف" رئيسة الدير تردد الصلوات عـلى رؤوس الراهبات المترسـمات بعد انصراف البابا والجمع المقـدس حين لمحتني أقف أمام تمثـال القديـس "مارجرجس" وعيوني تسِـحّ ، أكملت صلواتها، ثم أقبلت نحوي ، باركتني وسألتني عن حالي ، ولماذا هذه الدموع ، فأخبرتها بأن "مارجرجس" قديس روحي منـذ الصغر ، وأنني دائمة الحلم به ، سـحبتني من يـدي وأدخلتني حجرتـه ، وجدت صورًا مدشـنة لرب المجـد القدوس والسـيدة العذراء والشـــــهيد "مارجرجس" فأشعلتُ شمعة كانت بحقيبتي ووضعتها أمامهم ، وجلستُ في توحد تام معهم ، تركتني "تماف" الرئيسـة وخرجتُ في صمـت ، لا أعرفُ كم من الوقت قضيـت وأنا في مجلـسي غارقة في صمـت وجلال ، ثم اكتشـفتُ أن الوقت المحدد لي مـن مشرفة الرحلة قد انتهى، فقررتُ الذهـاب ، في طريق خروجي من الدير كان هناك راهبات ينظفـن المكان بعد انصراف الزوار، وأخريات يشـعلن البخور، ابتسـمت لهـن ، فباركتني إحداهن ، وعدتُ محملة بالبخـور والدعوات وبركات "مارجرجس" الذي كنت أعرف أنه سيزورني هذه الليلة.

كنــتُ في بئر مظلم أحاول تســلقه ، كان البئر عميقاً وبارداً، وعلى جانبيه فتحات تصلح لأن أضع قدمي فيها وأصعد لأعلى ، تذكرت أن في جيبي شــمعة فأخرجتها ، لكن من أين آتي بالنيران لأشعلها ؟ همست في سري: "يا ســيدي يا قديس روحي : أشعل شــمعتي" ، فاشتعلتْ دون أن أدري مصــدر النار، كنتُ كلما وضعتُ قدماً في فتحــة من الفتحات الغائــرة في جانب البئر تنزلق ، ثمة طمي لــزج يغطي كل الفتحات ، وكلــما صعدتُ جزءاً يعيــدني الانزلاق لأســفل ، تغطي المياه البــاردة رئتيّ ، همســتُ ثانيــة : "يا قديس روحي : أنقــذني أو اصعدْ بروحــي للملكــوت ، لأنني تعبت من الانــزلاق والمياه تكتــم أنفاسي" ، جاءني صوت من قرار بعيد : "لا خابَ مــن توكل على رب المجد والملكــوت" ، وظهر القديس بردائه الأبيض الملائكيّ، مدَّ ذراعاً طويلة ملأت المســاحة بين السماء والأرض ، ونزلت عميقاً في البئر حيث أغرق ، ثم رفعني بيضاءَ من غير سوء ، كنتُ أحلق عالياً حينما أوصلني "مارجرجس" إلى ربــوة عالية مُحاطة بالزهور والــورود والرياحين ، قلتُ له: "خذني معك إلى ملكوت الرب في الفردوس الأعلى" ، قال : "ليس هذا موعدك يا

ابنتي ، أمامك طريق طويلة وشـاقة سوف تمشين فيها ، أمامك شوك كثير سـوف يُدْمي أقدامك، وعتمة يعقبها نور، لكنـكِ في نهاية الطريق سـوف تتخففين من ثقل الجسـد وسوف تصعدين ، سوف يتحول جسدك بخوراً مقدساً ، ساعتها سوف ننتظرك هناك في ملكوت الرب" .

هـل كان حلمي الـذي تكرر علامـة لم أرَها إلا بعد مـضي عقدين مـن الزمان؟! مـا الذي جعلنـي لا أرى العلامـات؟! لماذا عُميت عليّ؟ ما الـذي جعلني عمياءَ البصيرة حتى لا أرى نـداء القديس الواضح البيِّن؟ لماذا انتظرتُ كل هذه السـنين حتى أقرر أنني أشتاق لثوب الراهبة المُرَصَّع بصلبان مُذهَّبة منذ أن كنت صغيرة؟.

بعد شـهور من سـكني في المدينـة الجامعية كنتُ قد وصلتُ لحالة من الكآبة والإحباط لم أسـتطع معها التعايـش ، كنـتُ أبكي لأبي كلما زارني ، كان يسـألني : "هل يتعرض لي أحد بالأذى؟" وكنتُ أنفي ، كيف أصف له حالة التجاهل والصمت التي يمارسـها ضدي زميلاتُ حجرتي؟ هل يفهم مثلاً أنني لا أسـتطيع أن آكل معهن في وجبـة غذائية في الحجرة ؟ هـل يتفهم أنني لم أضع

يــدي معهن في طبق واحــد؟ هل يتفهــم معنى أنهن يشــعرن بالقرف من تناول الطعــام معي ؟ هل يتصور أنني كلما عدتُ من قريتي في الإجازة الأسبوعية وأكون قــد أحضرت معي مــا تعطيه لي أمي مــن زبدة وجبن ولحمــة وغيرها مــن الأطعمة الريفية كــن يرفضن أن يشــاركنني ما أحضرت ، وكنت أسمعهن يقلن من وراء ظهري: "إن حاجة المســيحيين مقرفة وزنخة" ، ولم أكن أعرف ما معنى زنخة ، لكنني كنت أكتم حزني وأصمت، وبالطبع لم أكن آخذ منهن شيئاً مما يحضرنه بالضرورة .

وافــق أبي بعد دموع ورجاءات أن أســكن في شــقة منفصلــة ، كان إيجــارُ الشــقة مرتفعــاً ، وخاصة أنني رفضت أن يشاركني فيها أحد ، رغبتي في أن أنفرد بذاتي بعد تجربة الشهور المقلقة في المدينة الجامعية جعلتني أطلب من أبي أن يزيد لي مصاريفي حتى أستطيع تغطية تكلفة السكن ،وافق ، ولم يعد يكتفي بذهابي إلى قريتي يومي الخميس والجمعة، بل كان يُحضر أمي معه ويأتي لزيارتي على فترات متقاربة ، اعتقدَ أن زياراته هو وأمي لي تعطيني أماناً وثقــة ليس أمام صاحبة البيت فقط ،

بل في نظر أهل المنطقة التي أســكن فيها، فصورة بنت العائلــة المحافظة هي الصورة التي رغبــتُ أنا وأبي في تقديمهــا للجميع ، حتى لا أكون مطمعاً لأحد ، كان أبي يتــودد لصاحبة المنزل حتــى ترعاني ، فيُحضر لها كل ما يســتطيع حمله من خيرات الريف ، كانت المرأة تفرح بطلَّــة أبي عليها مُحمَّــلاً بالهدايا ، لم تكــن فقط هدايا أبي مــا يُفرح صاحبــة البيت ، بل خفــة روحه ومزاحه الدائم معهــا ، جعلها تتودد إليه ، وكانت أمي تشــعر بالغيرة منها ، لكن أبي كان قادراً على أن يزيل غيرة أمي ويُطمئِنَها من ناحية المرأة ، وكان أقوى حجة يدافع بها أبي أن المرأة ترعى صغيرتها.

***

سـلوى

أنا "سلوى" زميلة "فردوس" ، المسلمة التي خرجت مـن بيت علم وتصـوف ، علمني جـدي أن أحب كل تفاصيـل العالم، لأنَّ فيها بعضاً من روح الله ، كل شـئ يحمل نفخة من روحـه، وكلما دخل الحقد أو الغضب قلبـاً كلما توارتْ هذه الروحُ فينا ، وكلما دخلت المحبة والتسـامح قلبـاً كلما اقتربنـا من هذه الـروح ، كانت "فردوس" تسـير معي من صف لصـف منذ أن دخلنا المدرسة الابتدائية، كان عدد البنات في الفصل لا يتعدَّى عشر بنـات ، كن يتناقصن عامـاً وراء عام ، حتى صرنا أربـعَ بنات في المدرسـة الإعدادية ، بعـد أن انقطعت بقيـة البنات عن التعليم بعد أن حصلن على الشـهادة الابتدائيـة ، كنا نسـمع عن زواجهـن السريع ونخجل ونحـن نتصور أنهن صرن نسـاءً ، ونحمد الله أن أهلنا نحـن الأربعة آمنوا بحقنـا في مواصلة التعليم ، لم تكن "فـردوس" قريبة مني في السـنوات الأولى ، فقد كانت

تفضل الصمت والجلوس متوحــدة ، اقتربتُ منها حين وجــدتُ البنات يتحاملــن عليها حــين لاحظن نظرات الإعجــاب في عيــون "محمود" نحوهــا ، لا أعرف لماذا اتخذن هذا الموقف العدائيّ منها؟ لا أعرف هل شــعرن بالغيرة لأن فتاة مســيحية نالت إعجاب شاب مسلم ؟ هل رأين أنهــن أولى بهذه النظرات المتولهة بين الصبي والفتــاة ؟ هل هو موقف أخلاقــي ؟ المحصلة النهائية أنهــن وقفن ضدها ، وكن يتعمدن أن تصلها إهاناتهن ، شــعرتُ بالشفقة عليها ، فبدأت أتودَّدُ إليها، صدَّتني في البداية في رفق ، كانت تفضل الوحدة، لكنني استطعتُ أن أقتحمها ، أن أقــترب من روحها ، أن ألمس روح الله داخلها ، فبدأتْ تلين ، كنا نتحدث كثيراً في أوقات الفراغ، تحكي لي عن ماريا صديقتها المسيحية التي تصغرها سناً، تحكي لي عن أمها وأبيها، وعن أصدقاء وصديقات مدرسة الأحد في الكنيسة ، وكنتُ أجد هذا العالم مُبهراً بالنسبة لي ، كنت أعجب جداً بهــذه الروح الهادئة التي يتمتع بها المســيحيون ، كانت تفسرها لي بأن روح "يســوع" تسكن كل مسيحيّ ، وأن "يسوع" أمرهم بالمحبة ، ومن يضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر، ولما كنت أدافع

عنها أمــام الطالبات المســلمات كُنَّ يقلــن : "إن ذلك الهدوء تجاه العالم هو خبث مســيحي وادعاء الضعف، لكنهم إن تمكنوا لن نتعرف على وجوههم المتســامحة تلك" ، وكنتُ أكره هذا التجبر الإسلامي، ولا يهمني هل هو تســامح وســلام مع العالم أم ادِّعــاء لذلك ، كل ما يهمنــي المعاملة الطيبة التي يتعاملــون بها معنا نحن الآخر بالنسبة لهم ، ألا يخبرنا ديننُا أن الدين معاملة؟!.

كنتُ أتمنَّى أن تــزورني في بيتي لتذاكر معي وأرغب طبعــاً أن أزورها وأرى منزلهــا ، وأرى أيقونات العذراء والقديســين في حجرتهــا ، لكنَّ الرعب كان يتجسَّــد في وجههــا حينــما أعرض عليهــا أحدَ العرضــين ، فلا هي تســتطيع أن تأتي لمنزلنا ولا أنا قــادرة أن أذهب إليها ، فأمها لا تعرف أنها تتحدث أصلاً إلى فتاة مســلمة ، فما بالك بتوطيد الصداقة بينهما ، تحدثت كثيراً عن نفسية أمها وعلاقتهــا المُركَّبة بالجيران والمســلمين والشــعب المسيحي ، فتفهمت الوضع واكتفيتُ أن تكون صداقتنا في المدرسة فقط .

لكــنَّ أباها كسر هذا الحظر، فكان يُحضر "فردوس"

معه للحــضرة عند جدي ، وكنت أفــرح ، وأعتني بها ، وأوفر لها كل ما يجعلها مرتاحة ، فقد كانت بالنسبة لي أختــاً أو ابنة عم مثلها مثل بقية بنات عمومتي ، وهذا كان يزعــج ابنة عمــي "عبد الرحيــم" ، وتغضب حين أســاويها بفردوس ، لكن هكذا كان إحســاسي ، فلماذا أخجل منه ؟

كنــت أشــفقُ عليها هــي و"محمود" مــن خطورة علاقتهما ، لن يســمحَ أحدٌ أبداً لهذه الأرواح أن تلتقي ، الشعب المسيحي والكنيسة سوف يقفان ضدها ، وحتماً عائلة "محمود" الكبيرة لن تسمح لابنهم أن يتزوج من مســيحية ، حاولتُ كثيراً أن أتحــدث إليها حتى تبتعد عنه ، لكنها كانت تبكي وتقول: "الأمر ليس بيدي ، ماذا أفعل؟".

كنــتُ أشــفق عليها ، فالحــبُّ أصــلاً في عُرف أهل الجنــوب جريمــة ، فــما بالــك بحب غير مــشروع بين المختلفين دينيَّاً؟!.

في المدرسة الثانوية وقبل أن تفرقنا المدن والجامعات كنتُ قد صرتُ أقربَ صديقةٍ لها ، لكن البنات المسيحيات

كُــنَّ ينظرن لي بحذر وريبة طــوال الوقت ، حين أقترب منهن كان الكلام يتوقف ، كُنَّ يصمتن بريبة ، ثم يبحثن عــن أي كلام يخالف بالطبع ما كــن يتحدثن فيه قبل مجيئى ، تشــعر هي بالحرج من المعاملة الباردة التي يعاملنني بها ، تحاول أن تمزح حتى لا تشعرني بالحرج، وتبــدأ الفتيات في الانصراف وأبقــى أنا وهي ، تتحدث بحــرج وتلتمس لهن الأعذار ، وأنا أضحك وأخبرها أنني متفهمة للوضع .

كنت أتحــدث معها عن نصوص مــن العهد القديم وأناقشــها فيها ، وكانت تفرح باهتمامي ، كانت "مراثي إرميا" بالنسبة لي نصَّاً مُعجزاً لا أمَلُّ من قراءته ، وكنتُ أخبرهــا أنني أعتبر هذا النصَّ نصَّاً أدبيَّاً وإعجازاً حقيقياً لمــا فيه من بلاغة وجــمال يفوق قــدرة البشر، وكانت تتعجــب من زاويــة الرؤية التــي أرى بها هــذا النصَّ الدينــي ، وهي تخبرني أنه نصٌّ ديني وليــس نصَّاً أدبيَّاً كما أقول أنا.

في يوم غائم من أيام الشــتاء وجدتُها تدخل المدرسة مرتدية الســواد على خلاف الزي الرســمي للمدرســة ،

وجهُها تبــين عليه كدمات وعيونهــا ممتلئة بالدموع ، فزعــت إليها لأتلقفها في حضني وهي تبكي ، عقلي كان يعمل بدأب عن الأسباب التي يمكن أن تكون قد حدثت، وأنــا أهدئها ورد في ذهني أن قصتها مع "محمود" هي الســبب وراء هذا الأمر ، حين هدأت وجلست تحكي لي فزعت من كمية العنف التي مُورست ضدها من أمها ، والترهيب النفسي الذي مارسه عليها الرهبان والقساوسة في الإبراشــية والتهديدات المرعبة التي هددوها بها، لم أكن أعــرف أن قصتها وصلت للكنيســة ، ســألتها من أخبرهم بالقصة؟

جلســتْ تــسرد لي الحكاية ، وكيــف أنَّ أحد زملائنا المســيحيين في المدرســة عرف بحبهما ، فأخبر الكهنة في الكنيســة ، وهم بدورهم أرسلوا إلى أبيها وأمها ، وحين عرفت الأم انهالت عليها ضرباً ، لم تنتظر حتى تعود بها إلى المنــزل ، بل ضربتها في الكنيســة ، حاول الرهبان أن يمنعوها من ضربهــا ، لكنهم لم يفلحوا في تخليصها من يد الأم المشتعلة غضباً .

أخذتها الأم في ســيارة خاصة للمنزل وحبســتها لمدة

أسـبوع كامل ومارسـت عليها كل أنـواع التعذيب ، لم يفلـح الأب الحـاني أن يحميَ صغيرته مـن غضبة أمها ولا من غضبة الكنيسـة ، فدفاعُه عنها اعتبرته الكنيسة خطيـة يجـبُ التكفير عنها ، بعد أسـبوع رضخت الأم لرجاءات الأب ، وسمحت لها بالخروج للمدرسة .

تحدثت كثيراً عن خطط للهروب ، لكنني كنتُ أعرف أنها سـتفتح على نفسـها باباً من أبواب جهنم ، فحتماً الكنيسة لن تصمت على الأمر ، كما أنني أشك أن تساند عائلة "محمود" الشـابين العاشـقين ، حاولتُ أن أثنيها عـن قراراتها التي أخذتهـا في لحظات الانفعال ، وكنت أتابع تحركاتها كل يوم ، وإن غابت يوماً قلبي يفزع من أجلهـا وأضع مئات التصورات عما حدث لها ، ولا أهدأ إلا إذا رأيتُهـا مقبلة عليّ في انكسـار ومذلة لم أعهدهما فيها من قبل ، كثيراً ما بكيتُ لأجلها ، كثيراً ما سـجدتُ لله تضرُّعاً أن يشـفي قلبها من هذه المصيبة الكبرى، لم أتصوَّرْ أن يصل الحب بالعاشـقين إلى هذا المصير المؤلم ، وكنتُ أقول لها مازحـة أنني بعد قصتها مع "محمود" لن أسمح لقلبي أن يعشق يوماً ، فالعشق لا يجلب على

المحبين ســوى الدمار، وكانت ترد على مزاحي بابتسامة حزينــة ، وتدعو لي أن يحمي الرب "يســوع" قلبي من حالة عشق يرفضها الجميع حتى أقرب الناس إلى قلبها، حتى أبيها الذي يملك روح ملاك عطوف .

***

برسوم منير نخلة

كانــت عائلتي تعمــل في تجارة القطــن منذ عقود طويلة، بيتنا لم يكن يخلو طوال الأسبوع من تجار يأتون وآخرين يذهبون ، المنــدرة القبلية في بيتنا والتي يفتح بابها على الشــارع الرئيسي كانت مقرَّاً شبهَ دائمٍ للتجار والوزانــين ، الجميع يقصد بيت المعلــم "منير نخلة" ، يدخل بيتنا المســلم قبل المسيحي مادام هناك مصلحة ســوف يحققها لأبي أو يقضيها منه ، وأيضاً النســاء كُنَّ يقصدن أمي لتتوســط بينهن وبين أبي في بيع المحاصيل الصغيرة بثمن جيد أو الاقتراض من أجل زواج الأبناء أو بناء البيت الآيل للســقوط حتى موســم العام القادم ، كثيرٌ من النساء كن يأتين إلى منزلنا لبيع محصول القطن للعــام القادم ، وكان أبي يُجيــد المفاوضة على المحصول الذي هو في عالم الغيب ، وعلى أشــياء أخرى حين تروق لــه إحداهن ، وغالباً مــا كان ينجــح أبي في التفاوض ، ويأخذ مــا يريد من المــرأة التي تجد نفســها مضطرة

للتفاوض تحت ضغط الحاجة.

كنتُ وأخي الأكــبر نتلصَّص على أبي حين تأتيه امرأة تريد منه أمراً ، تخرج أمي لتأمر إحدى الخادمات بعمل الشاي للضيفة ويبقى هو يقلب عيونه في بضاعته التي ســيدفع ثمنهــا مُقدَّماً ، المــرأة الجالســة قبالته ترجوه بالمســيح الحي والعدرا أم النور أن يزيد لها في الســعر قليــلاً ، تعــرف أن جوفه يحترق عــلى جمالها الأنثوي ، فتزيح الطرحة التي تغطي رأسها وتنسدل على صدرها وكتفيهــا قليلاً ؛ ليشــتعل أبي حين يلمــح بياض مفرق النهدين ، فيعطي للمرأة ما تريد ، ويَعِدُها بالزيادة إن هي اســتقبلته في بيتها ، فتخبره أنها بانتظاره مساءً بعد أن تغفــو عيون المراقبين ، كان أخي الأكبر يظلُّ ســاهراً حتى يتأخر الليل، ثم يسحبني من يدي بسرعة، لنتلصَّص عــلى أبي الذي يتســحَّب ، ليذهــب إلى موعده المُنتظر مــع المرأة ، حين يفطن إلى تلصصنا عليه يزجرنا بغضب مكتــوم ، حتى لا تصحــو أمي ، ثم يدخلنــا المخزن في آخر الدار ويخرج، ينسانا وسط الروائح العطنة للقطن وكراكيب المخزن وخربشــة الفئران ، وصرير الصراصير،

كنت أشــعر بالرعب، فأندَسُّ في جسد أخي وأنام، يتركنا حتى الصباح، حين تفتقدنا أمي في موعد الإفطار، يخبرها أنه حبسنا حين تشاجرنا ، فترجوه أن يُخرجنا ، ولما تسِحُّ دموعها يقوم غاضباً متوعــداً ويخرجنا، وعيونه النارية تتوعدنا ألاَّ نُخبرَ أحداً بحرف.

ليالٍ شتوية طويلة قضيناها في المخزن أسيري الخوف، وليالى صيف أكثر ، وفي ســاعات الليــل الطويل لم نكن نــدري ماذا نفعل ، حين كنــتُ أصرخ لمرور فأر بجانبي أو زعيق صرصور في أذني كان أخي يحتضنني ويهدئني، يظل يداعب جســدي بلطف ، حتى تتسلل يده إلى ما بــين فخذيّ ، يظل يمررها ، مــرات ومرات ، ثم يداعب مؤخــرتي التي تلين تحت أصابعه التي يبللها بريقه ، ثم يدخل شيئه في جسدي .

في المرَّات الأولى كنتُ أكتم بكائي ، فمؤخرتي تؤلمني ، لكن خوفي يتضاعف حين يخوفني أخي بأبي الذي يكون غالباً قد عاد من مغامراته النسائية ، ساعتها ألين ، وتلين مؤخرتي ، ويصبح كل شئ ممتعاً دون ألم ، وهكذا صرنا عشيقين .

كبرنا وكبر معنا سرُّنا ، أراد أبي أن يزوج أخي لكنه كان دائم الرفض والتهرب من الأمر ، محاولات كثيرة قام بها أبي ، ليقنع أخي بالزواج ، وحين فشل تحدث مع راهب الكنيسة الذي يعترف أمامه أخي مرة كل شهر ، طلب منه أن يتحدث معه ويقنعه بأهمية الزواج ، لكن أخي لم يكن يعترف أمام الراهب إلا بذنوب صغيرة يرتكبها في يومه ، دون أن يحدثه عن سر المتعة الكبير الذي يجمعنا ، لم يستطع الراهب ولا كل قساوسة الأبراشية الذين تحدث إليهم أبي في أمرنا أنا وأخي أن يقنعوا أحدنا بالزواج ، وأبي يخشى على ثروته الضخمة من عدم وجود ورثة وأحفاد ، كان أبي يحدث أمي بالليل متألماً حزيناً ، كان يقول لها : "كأنها لعنة أصابت أبنائي" ، رُبَّما يكون أبي محقاً ، وربما ما نكون فيه من حالة توحد وانعزال عن الآخرين هو لعنته الخاصة ، لعنة عشقه للنساء ، لعنة استغلاله لفقرهن وحاجتهن ، كم امرأة ضاجعها أبي وهي لا ترغب فيه ؟ كم امرأة مسلمة منحته جسدها وهي كارهة لأنها تريد أن تقترض منه أو تبيعه محصولها؟! ترى يا أبي هل كنت ترى الحب والرغبة في عيون كل النساء اللاتي أتيتهن من وراء عيون

أمي؟! أو ربما تكون لعنة حزن أمي التي ذبل جمالها في بطء وأنت تنتقل من جسد لجسد دون أن تنتبه أنها تذبل مثل نبتة نسى صاحبها أن يسقيها .

إنها لعنتك يا أبي على أية حال ، كثرت الإشاعات حولنا، لكن الإشاعات كلها كانت تدور في إطار أننا ليس لنا من الفحولة شئ ، وأننا لسنا رجالاً كما كانوا يقولون، لكنَّ أحداً لم يتصور أن نكون قد توحدت رغباتنا في جسدينا دون أن نرغب في جسد خارج ذواتنا.

حين تزوج أخي بعد معاركَ حاميةٍ مع أبي استطاع أن ينجب ، وأن ينفي عنه شبهة الغرام المحرم ، وكنتُ أعتقد أنني يمكنني أن أفعل مثله ، أتزوج بامرأة وأنجب منها وأريح نفسي من الصدام مع أبي .

كانت "فردوس" تحضر للكنيسة في قداس الأحد ، كنتُ أراها امرأة مختلفة ، لم يلفت نظري جمالها ، بل لفت نظري صوتها العميق وهي تتحدث ، كنتُ أتعمَّد الحديث إليها في موضوعات تبدو تافهة لمجرد أن أطيل عمر الوقوف معها ، لكنها لم تكن تركز في الحديث ، كنت أسعى لأظل في محيطها ، وسماع ذلك الصوت

الذي يحتلُّني حتى موعد القداس القادم، مواقف كثيرة جمعتنـــا ورأيـــتُ فيها إنســـانية وحنـــواً ، لكنها لم تكن تخلو من العُقد النفسية ، فحين كنت أحاول التعبيرعن مشـــاعري كانت الدموع المتحجـــرة في عينيها تربكني ، لكنَّنِـــي حاولـــتُ أن أقترب منها أكثر، حتى ينشـــأ بيننا قبول ، صحيحٌ أن ما بدأ يتشكل بيننا لم يكن حباً ، لكنه كان شـــعوراً يكفي لأن نأخذ خطـــواتٍ جادة في طريق الزواج ، أقام أبي لنا فرحاً أســـطورياً لم ترَ "ملوي" مثله ، فقد كان فرحنُا فرصـــة للتفاخر بثرائه من ناحية ، ومن ناحيـــة أخـــرى فرصة لأن يجمع ديونه لـــدى كبار تجار محافظة المنيا من المســـلمين والمســـيحيين ، فله واجب لدى كل منهم ، وفرصة أن يردُّوا له الواجب.

في الليلة الأولى من زفافنا تحجَّجتُ لها بإرهاقي طوال أيـــام ما قبل الفـــرح ، فتفهمت الوضـــع ولم تعلق، نمنا بسلام، وفي اليوم التالي كان من المنتظر أن تبدأ الحكاية، كنـــتُ عرفـــتُ الحكايات التي كانت تدور في جلســـات الشـــعب الخاصة عن علاقتها بالشـــاب المســـلم، وكنتُ عرفتُ أيضاً بما فعلته الكنيسة من جلسات مكثفة معها

من أجل إعادتهـا إلى "الحظيرة المباركة" ، وكنت أعرف أيضاً ما تعرضت له من عقوبات قاسـية في الكنيسة ، لم يكـن كل هذا كافياً ، لأن أتراجـع عن قرار الزواج بها ، رغم اعتراض أبي وأخي لما عرفوه أيضاً من إشاعات تدور حـول ما حـدث لها ، ومرت الأيام وجسـدُها الفاتن لم يكن كافياً لإشعالي ، ومرَّتْ أيامٌ وليالٍ كُثُر حتى اعتقدتْ أنني في حالة من الضعف الجنسي ، قالت ببسـاطة أن هذه حالة مرضية وتسـتحق العـلاج والذهاب لطبيب وهذا لا يعيبني ولا يعيب رجولتي .

وكنتُ أعِدُها أنني سأذهب للطبيب في أقرب وقت، وكانـت تصدقنـي ، ولم ألمح في عينيها غضبـاً أو حزناً ، وكان يؤلمنـي هـذا ، وكنـت أقول في بالي أنهـا ما تزال واقعة في عشـق الرجل الآخر ، ورغم أنني لم أكن أريد من جسـدها إلا مشاركة السرير والغطاء إلا أن تفكيري في أنَّ رجـلاً آخـر يحتل عمق روحهـا يحرقني ، كانت تخبرني أنها تشتاق لأمها وأبيها ، وكنت أشجعها للذهاب إليهـما ؛ لأنفـرد بأخي ونمـارس لحظات عشـقنا التي صـارت نادرة منـذ زواجي ، كنت أسـأله كيف يتمكن

من ممارسة الحب مع زوجته ، وأن عشقه لجسدي لا يمنعه من الزواج والإنجاب ، وكان يحدثني أن هناك من الرجال مزدوجي المزاج ، وأنهم يمارسون الجنس مع النساء والرجال معاً ، وأنني من نوع آخر أقتصر في حبي على الرجال فقط ، وكان يَعِدُني أنه لن يتخلى عني يوماً، وأنني سأظل متعته الكبرى .

في اليوم المشئوم كانت قد أخبرتني أنها ستأتي يوم الأحد صباحاً على القداس مباشرة ، ومن ثم نعود للمنزل معاً ، لكنها لسبب لا أعلمه قررتْ أن تعود لشقتنا السبت ، ووجدتني في حضن أخي ، لم أعرف كيف أصف لها الأمر ، ولا يوجد لدي من المبررات ما يقنعها بأنني لا أرتكب خطية حين أمارس شغفي مع أخي ، وأنني حاولتُ كثيراً أن أتواصل معها ، وأنها لم تقصر في حقي في شئ ، لكنها لم تتفهم الأمر بما يكفي لنكمل حياننا سوياً ، لشدّ ما يؤلمني التفكير في أنها تريد الطلاق لتتزوج من الآخر ، رغم تكرارها لي أنها لا تريد أن تفرد طولها في طول رجل ، وأنها تريد الخلاص لروحها وحسب .

الكنيسة تمنعنا من الفراق ، ولن نتمكن من الطلاق إلا إذا اشــتكت هي للكنيســة بما رأت ، وفي هذا ليس دماري فحسب، بل دمار كل عائلتي ، رجوتها أن تخفي الأمر ولا تفضحني ، لكنها اشــترطتْ أن نتطلق مدنيَّاً في المحكمة أو تلجأ للكنيسة، كثيرةٌ هي المرات التي بكيتُ بين يديها حتى تحافظ على الشــكل العائــليّ لعلاقتنا، كانــت تتصبَّر أيامــاً تذهــب إلى عائلتهــا، وحين تعود تكون محملة بالألم والإصرارعلى الفراق ، ســنوات مرت عــلى هذا العذاب ، أراوغها مــرة وأصبِّرها أخرى، وجاء وقت وشــعرتُ أنني لم أعد قــادراً على تحمل دموعها ، فوافقتُ على الطلاق المدنيّ حتى أنجوَ بنفسي وعائلتي، فــلا أعرف كيف يمكن لواحد مثــلي أن يواجه العالم لو عرفت حكايته، الآن صِرْتُ حُراً ، ولن أكرر الأمرَ مطلقاً، فلن أدخل حياتي امــرأة قط ، وصار أخي راعي روحي وجسدي برفقتي معظم الوقت ، فشقة الزوجية الخاصة بي و"فردوس" صارت شقتنا أنا وأخي ، ولم يعد للخوف بعد اليوم مكانٌ في حياتي .

***

تـوادرس

عرف "توادروس" أخو الباش حكيم "يوســف" كيف يصنــع علاقات قويــة مع من في الحكم ، ســواء ضباط مركــز الشرطة في ديرمواس أو نقطــة البوليس الصغيرة في القريــة ، بــل وصلت علاقات العم "تــوادروس" إلى مستوى أكبر من ذلك ، فعلاقاته القوية وصلت إلى مدير المديريــة في المنيا ، بــل إلى المحافظ ذاته ، كانت صورة اللــوبي اليهودي في أمريــكا ماثلة في ذهنــه وهو يبني مملكتــه الاقتصادية ، هو يعرف أن للمال صوتاً لا يمكن أن ينكره أحد ، كما أنه عانى مثل بقية الشعب المسيحي في صغــره من الاضطهــاد الطائفــيّ ، لم يكن الاضطهاد يأتيه من الســلطة ، بقدر مــا كان يأتيه من الناس وما يحملــون من ثقافة طائفيــة وعنصرية تجاه المختلف ، فكل تفاصيل الحياة كانت تتحيَّز ضده ، الناس دون أن تــدري تمارس عنصرية وإقصاءً ضــد المختلف ، منذ أن دخل عالم المال وهو تاجر صغير قرر أن يســتخدم قوة

المال ليقيم سياجاً من الحماية والأمان له ولعائلته، وكان دوماً يتحدث مع "يوسف" عن أهمية إقامة علاقات مع السلطة ، وأهمية بذل المال في سبيل تعميق هذه العلاقات حتى توفر لهم السلطة الحماية، وكان يذكره دوماً أن اللوبي اليهودي في أمريكا المتحكم في الاقتصاد يستطيع أن يؤثر على علاقة أمريكا بكل العالم ، وكان "يوسف" الرجل المملوء محبة تجاه العالم لا يفكر بطريقة أخيه ، لكنه لا يعارضه غالباً ما دام ذلك سوف يساعد في حل أزمات الشعب المسيحيّ على أية حال ، لم تغفل علاقات "توادرس" القوية رجال مجلس الشعب والمجالس المحلية ، أصبحت الهدايا والتبرعات المقنعة تصل إلى كل ذي سلطة في المحافظة كلها ، فصنع لهم هذا هالة من الهيبة والوقار والسلطة التي حمتهم من كل شر ، حتى من يفكر في الترشح لمجلس الشعب يذهب إلى "توادرس" يحصل منه على وعد بالتأييد المادي والمعنوي ، ويحصل "توادرس" بالضرورة على خدمات له ولشعب الأبراشية كلها ، عرف "توادرس" كيف يبني جداراً قوياً من الحماية ذللت أمامهم كل العقبات ، وكان شعب الأبراشية يثق فيهما ، يثق في "يوسف" لما

فيه من صلاح ومــودة للجميع ، كما يثق في "توادرس" لمــا له من ثِقل مــاليّ واقتصاديّ ، وحين يخرج أحدٌ على النظام الثابت بينهم وبين السلطة يقف له الأخوان ويتم احتواء المشــكلة فوراً ، راعي الأبراشية في ديرمواس كان يعتبرهما الســلطة الدنيوية في مقابل ســلطته الدينية ، وكذلك راعي الكنيسة الأم في المنيا، صارت سيرة حياتهما مباركة من "البابا شــنودة" في الكرازة الأم في العباسية ، وفي المناسبات الدينية الكبرى التي يذهب فيها الأخوان إلى القاهــرة يباركهما البابا ويخبرهــما أنه يطمئن على الشعب المسيحي في المنيا بوجودهما ، فهما أفضل من يديــر العلاقات الناجحة التي تحافظ على وشــائج الود الدقيقة بين المسيحيين والمسلمين ، وحين تبرز قصة تثير المشــكلات هنا أو هناك كوقوع فتاة مســلمة في غرام شــاب مســيحي أو وقوع فتاة مســيحية في غرام شاب مســلم يبرز دور الأخوين "يوســف" و"تــوادروس" في احتواء المشكلة قبل أن تتفاقم ، ويجلس كبار المسلمين مــع الأخوين وكبار الشــعب المســيحي ويتــم الصلح وتختفي المشكلة فوراً.

***

رغبة فردوس الأكيدة في التحرر

"يــا ابنتي : يســوع يرعى روحـــــك .. تخلصي من غواية الشيطان ، وعودي لحظيرة الرب العامرة بالسلام، إن روحــكِ تصارع الشــيطان في معركة ضارية" ، هكذا تحــدث الأب إلى "فــردوس" ، وهي تعــترف أمامه بما يحدث بينها وبين "برســوم"، لم تكن تدري لماذا التفكير في الخلاص من رجل خرج أصــلاً على تعاليم الرب يُعدُّ خطية ؟! خطيئة تطلب العفو عنها ؟! وخطيئته هو يا أبتي ؟!

ردَّ الأب: "يســوع يعد لك منزلة عليا في الفردوس يا ابنتي فلا تضيعيها بالتمرد على تعاليم الكنيســة ، أليس الزواجُ سراً من أسرار الكنيسة ؟!" ، لكنها لم ترد أن تجادل الأب الذي تذهب إليه في موعدها الأســبوعيّ ؛ لتعترف لــه بخطايا غير أكيدة ، هي لا تنكــر رغبتها الأكيدة في التخلص مــن رجل عاملها دون رحمــة ، لكنها لا تنكرُ

أيضــاً أن ثمة أنياب حادَّة تنهش روحها ، ولا تســتطيع أن تســكتها إلا بعد أن تذهب للكاهن ، وتجلس أمامه؛ لتعترف .

عاشت معه سنوات أثبتت خلالها أنها امرأة مخلصة للعلاقة المقدســة ، فلو أســاءت إلى هــذه العلاقة يوماً سوف ينظر إليها شعب الكنيسة باعتبارها امرأة مرتكبة للفاحشة ، لكن شعب كنيستها الطيب يغُضُّ الطرف عن فضائح زوجها، فنقود أبيه ونفوذه لن يجعلهم يرون كل ما يُرتكب من فضائح ، ولن يسمعوا بعلاقاته المشبوهة، فقــد تعوَّد النــاس أن يمنحوا صكــوكاً بالغفران المطلق للأغنياء من الرجال ، أما النساء فيأخذونهن بالشائعات فقط ، ويُشهرون سيوفهم في وجوههن.

كانت الأيامُ التي تلتْ معرفتها بالفعلة المشينة التي فعلها "برسوم" مع أخيه من أسوأ أيام حياتها ، بل فاقت في قسوتها ما فعلته الكنيسة معها بعد انكشاف علاقتها بمحمود ، منذ هذه الأيام صارت تعيش في كابوس يوميّ، كانت كل ليلة تضع سيناريو للتخلص من حياتها معه ، وكل صباح تستيقظ لتجدَه ينام جوارها في سلام ودعة ،

كطفل أمن غدر الزمان ، واستراح بجوار أمه .

صبرت "فردوس" على "برســـــوم" طويلاً ، تقرَّبت من جسده، لكنه يظل كلوح ثلج لا يتحرك لهذا الجسد الفوَّار الممتلــئ حيوية وصخباً ، وفي نهاية يوم شــتوي دافــئ ، وقد كانت راجعة من منزل والديها في "اســمو العــروس" ، بعــد أن أمضــت لديهم يومــي الخميس والجمعــة فتحــت باب شــقتها، وضعت مــا تحمل في يديهــا من أطعمة حملتها لها والدتها، ودخلت دون أن تدري أن زوجها في الشقة ، كانت الشقة تقريباً مظلمة، إلا من بعض ضوء يبين من أســفل بــاب حجرة النوم ، اعتقــدتْ أن زوجهــا في الخارج ، وأنه قــد نسي الضوء في حجــرة النــوم ، دخلت وهي خاليــة الذهن من أي شــئ، لكنها تصلبت أمام مشــهد زوجها يمارس الجنس مــع أخيه ، مرت لحظات قبل أن ينتبها لوقوفها في باب الحجرة ، لم تكن تدري ما الذي يجب عليها فعله ؟ هل تــصرخ وتفضح الأخوين ؟ هــل تنصرف غاضبة ؟ كيف ستخبر أبويها ؟ كيف ستواجهه ؟ كيف ستنظر في عينيه وقــد رأته يفعل ما يفعــل مع أخيه ؟ ما الذي يجب أن

تفعــل الآن ؟! ارتدي الرجلان ملابســهما وخرجا إليها ، كانــت تجلس على الكنبة في صمــت ، كان عقلها يدور في كل الاتجاهــات ، يبحث كل الخيارات ، خرج الأخ في صمت ، واقــترب منها زوجها ، جلس بجانبها يحاول أن يتحدث ، قالت له بهدوء لماذا تزوجها؟ فأخبرها أنه كان يتمنى أن تساعده على الشفاء ، قالت له أنها لن تفضح أمــره ، لكنها أيضاً لا ترغب في الاســتمرار معه ، ذكرها بوضع الكنيسة ، وأنه لن يستطيع أن يطلقها ، ضحكت ضحكــة ســاخرة ، وقالت بمرارة: "وهــل تعتقد أنك ما تزال داخل الشعب الكنسيّ وأنت ترتكب الخطية التي نهى عنها يســوع؟ هل تحترم رأي الكنيسة وأنت تخرج عــلى تعاليمها ؟" ، ونصحته أن يطلقها طلاقاً مدنياً وألا ينتظر رأي الكنيســة ، فلا علاقة لمثله بها ، وإن لم يفعل سوف تلجأ للكنيســة بدورها وتذكر عذرها الذي يجبر الجميع على تطليقها.

ماطــل طويلاً ، لكنه أمام إصرارهــا الواعي والحكيم عــلى حقها في الطــلاق قرَّر أن يأخــذ الخطوة ويطلقها مدنياً ، حتى لو أخرجه ذلك من رحمة الكنيســة ، قرر

أن يتحمــل مســؤولية ميله غير الطبيعــي وأن يطلقها حفاظاً على سمعة العائلة ، لكن المماطلة ظلت سنوات عاشت فيها أسوأ لحظات تعاستها وأشدها قسوة ، لكن في النهاية رضــخ لرغبتها ، عادت إلى أبيها دون أن تخبر أحداً بما حدث ، كلما سألها أحدٌ عن سبب طلاقها تقول: "لم نوفق" ، جملــة اختصرت بها كل حكايا الليالي التي أمضتها وحيدة حزينة ، كثيراً ما فكرت أن العيب فيها ، أو ربما لم تبذل جهداً كافياً كي تنال اهتمامه ، لكنها الآن تدرك أن العيب لم يكن عيبها ، لم تكن هي من قصرت، حاولــت أمها أن تعرف منها شــيئاً ، لكنها أبداً حافظت عــلى وعدها ، ولم تعــترف بما حدث ، انتهــى الأمر بها أن كرَّســت حياتها للرعاية المجتمعية ، أسَّست جمعية خيريــة لا تهدف للربح أســمتها "مؤسســة الخلاص" ، وكان مقرهــا مدينة ملوي ، و رغم أن اســم المؤسســة يبدو دينياً إلاَّ أنها حرصت على أن تكون مؤسسة مدنية تســاعد النســاء كي ينلن الخلاص ، النســاء هن ضحايا هذا المجتمع، بغض النظر إن كان مجتمعاً مســيحياً أو مسلماً ، إن النساء هن الحلقة الأضعف فيه ، وهن من يدفعن كل أثمان خطاياه ، صارت "فردوس" ومن معها

في مؤسسة الخلاص ملجأ لكل امرأة تحتاج لنصيحة أو دعم نفسي أو مجتمعي ، وجدت سعادتها في إسعاد الأخريات الضعيفات المهمشات ، وكان يأتيها نساء من كافة الطبقات والمستويات ، لا فرق بين مسلمة أو مسيحية ، كلهن موجوعات ومنذورات للعذاب، ولولا خطورة الذهاب إلى الدير ، لأكملت حياتها تساعد النساء في هذه المؤسسة .

كلما وجدتْ امرأة تعيسة تتساءل جادَّة :

ـ "لماذا تكره النساء إلى هذا الحد يا الله ؟! ما الذي ارتكبته أمنا حواء حتى نُعذَّبَ بخطيتها إلى آخر الدنيا؟! لماذا لا ترى عيناك أيها الرب أخطاء زوجي ؟ وكيف توفر كل هذا السلام لروحه وهو يرتكب الفاحشة ليس مع أخيه فقط ، بل مع رجال وصبية آخرين ؟ يصنع لهم الفخاخ من أمواله وعطوره وذهبه ، وحين تتسرب أطراف الحديث عن هذه الفخاخ التي أوقع فيها ضحاياه يبتلع الجميع ألسنتهم ، ولا يذكرونه بحرف! إنه ينام ملء جفنيه ، وروحه تغرق في السلام ، وحين يأتي الصباح يقوم منشرحَ الصدر ، يأكل أطايب الطعام ،

ويغرق جسده بالعطر ، العطر الذي كبته مريم المجدلية على قدمي المسـيح ، ثم يخـرج للدنيا ، يدندن بألحانه المفضلة وكأن الدنيا دانت له دون غيره من الرجال" .

كانت تسـتعرض في ذهنها ما قالـه الأب في القداس الأخير عن الخلاص والتحرر ، كان الأب في القداس يقول: " تشـمل كلمة الخلاص العِتق مـن العبودية والفِدْية ، فقد حررنا الله من عقاب الخطية ، ومن قوة الشـيطان والشر، بالفدية التي دفعها المسيح على الصليب ، وهكذا أعتقنا المسيح من رباط الخطية إلى الحرية ، وإلى علاقة جديـدة مع الله ، وإلى حياة جديدة للحب بعد غفران خطايانـا ، يوضح الكتـاب المقدس قوة فـداء وغفران المسـيح لخطايانا ، فدمُه الذي سفكه على الصليب هو الفدية التي دفعها لخلاصنا ، فقد أخذ جسـد بشريتنا ، وحمل خطايانا ، حتى يتحمل العقوبة التي نسـتحقها، ولتحرير جميع البشر وخلاصهم" بعد القداس سـألت القس عن حدود الخلاص ، ولماذا لا يسمح لها بالرهبنة حتـى تنعتق من هـذه الحياة التي تحياهـا ، لكنها لا تعيش على أية حال؟! فطأطأ القس رأسه كدجاجة تنقر

الحــب ، وفكر طويلاً قبــل أن يحدثها دون أن ينظر في عينيها ، وقال لها :

ـ "يا ابنتي مفارقة زوجك خطية ، لا تقعي فيها حتى لا يُبعدكِ يسوع عن مملكته المقدسة".

عادت للعبــة العرائس القطنيــة ، كانت تغيب مع الدمى في دروب افتراضية غــير محدودة بعقل ، تتنزَّه في حدائقَ وتقطف ورداً ، وتشــمُّ رياحين ، وفي ســاعة غضبهــا تقتل أعداءً افتراضيــين ، وتخوض حروباً تنتصر فيها دوماً ، تصنع وحوشــاً وتقضي عليهم ، تصلب رجالاً عُصاة ، تنتقم لنساء ظلمهن رجال ، تصنع حياة سعيدة مــع أمها ، ترســم لأمها صورة جميلة وســعيدة ، كانت ضحــكات أمها في عالمها الافــتراضيّ تجلجل في فضاءات روحها ، تحتضن أمها وتعــوض لحظات كثيرة تمنت أن تحتضنها في الواقع ، تصنع لحظات بهجة شاركتها فيها، تهيــئ كل صنوف الفرح لهــا ، لا تجعلها تبكي لحظة ، كفاها دموعَ الدنيا وتعاســتها ، تلبس أمها ثوب الفرح ، وتجعلها شريكة لمريم المباركة في الفردوس الأعلى برفقة الرب يسوع .

تذكرت حديث البابا في عيد مريم المباركة عن وضع الأرض والسماء حينما كانتا جميلتين وطاهرتين عندما خلقهما الله، ولكن حدث عصيان لوصية الله في جنة عدن ، من خلال غواية الشيطان (الحيّة) لأمنا حواء، ثم تلاها أبونا آدم ، وعندما زار الله الجنة ، اختبأ آدم وحواء، لأنهما شعرا بأنهما عريانان ، ولكي يسترا خطيتهما عملا لنفسيهما مآزر من أوراق التين ، ولكن عندما نظر الله لهما ، قال إن الإزار المصنوع بأيدٍ بشرية لا ينفع في تغطية (ستر وغفران) الخطية ، لذلك أخذ الله حيواناً وذبحه وصنع لآدم وحواء لباساً ، كان هذا هو بداية الدم المقدس ، وهذه هي الفدية الأولى التي قدمها الله العظيم صاحب القوة بيديه ، وكانت أول خبرة لآدم، تعلّم فيها معنى الموت بسبب الخطية ، فقد شاهد البقعة القرمزية التي صبغت الأرض بدم الحيوان البريء، الذي بُذلت حياته من أجل ستر خجل تعرية خطيتهما، وابتدأ مبدأ الذبيحة والغفران يظهر من خلال كلمة الله ، وفي النهاية (في القيامة من الأموات) سنرى عظمة العديد من القديسين الذين غسلوا ثيابهم في دم الحمل فصارت بيضاء طاهرة ، أتراها تحتاج لسفك

دماء حتى تتحرر؟ فكرت في قتل "برسوم" آلافَ المرات، لكــن جنة عرائســها كانت تعوضهــا ، وتجعلها تتصبر ، حاولت أن تصور جنة عــبر هذه العرائس ، وتضع فيها مجــددًا أمَّنا الأولى حــواء قبل أن تتهمهــا التوراة بأنها سببُ الخطية التي يدفع الإنسان ثمنها ، والتي لم يمحها حتــى صلب يســوع ، صحيح أن آدم تحمــل جزءاً من الخطيــة ، لكن التوراة تحمــل المرأة الذنب الأعظم ، لم تصنع نماذج لرجال في جنتهــا الافتراضية ، ثم قررت أن تعطي الفرصة مجدداً لأمنا الأولى ربما تستطيع أن تعيد صياغة الحياة ، وتنتصر لذاتها.

***

خطوات نحو الرب

لم تكن "فردوس" تدرك أن دخولها الدير سوف يمر بهذه البساطة على الجميع ، أمها نظرت إليها نظرة لا تدل على شئ، وقالت لها : "افعلي ما تريدين".

أبوها الذي تعوَّد أن يكون الأمانَ بالنسبة لها ، والذي طالما أنقذها من قسوة أمها ، ودافع عنها أمام قرار الانفصال عن زوجها ، بارك خطوتها نحو الرب كما أسماها ، زوجها ملَّ تعذيبَها والبكاءَ بين يديها ، وحين ذهب للمحكمة وطلقها عنَّفه أبوه ، وعنَّفه القس الاعترافيّ ، فأخبر القسَّ أنه لم يعد يريدها ، وأنه باع روحه للشيطان منذ سنوات ، ولا يريد أن يحتفظ بها على أية حال.

السيارة تقطع الطريق بسرعة ، تنظر من النافذة وتتأمل صخب الحياة التي تنسحب منها الآن ، القسُّ الجالس أمامها بجانب السائق يتمتم بأدعية لا تسمع

منها شـيئاً ، لكنها تلاحظ ارتعاشة الجانب الواضح من وجهه ، كانت تتابع الرعشـة الخفيفة في عضلات وجه القـس وتتخيَّل رتـم الكلمات التي يتمتـم بها ، الهواء البارد مع سرعة السـيارة يجرح جلدهـا وأذنيها ، أدار القس وجهه إليها وقال لها :

ـ "يا ابنتـي لو تغلقين النافذة قليـلاً حتى لا تُصابي بالزكام" .

نظرت إليه نظرة حيادية ، ثم واصلت هروبَها للخارج، حياتُها تمُرُّ أمام عينيها كشريط سـينمائيّ ، أصوات كثيرة تتداخل في أذنيهـا ، الذكريات الكثيرة تتصارع لتقفز في بؤرة شعورها، وذكرياتٌ أخرى تنسحب لهامش الشعور مُفسحة مكاناً لذكريات أقوى .

الذكريات السـعيدة أقـل الذكريات قـوة واقتحاماً للمشـهد ، بل تمثل النسـبة الأكبر من هامش الشعور ، الذكريات المؤلمة أكثر الذكريات تدافعاً وصخباً.

***

امرأتــان

لا يعرف أحد على وجــه الدقة ما الذي جعل علاقة "دميانــة" و"ســارة" بهذا التوتر والارتبــاك ، حين تولَّى "يوسف" رعاية "دميانة" بعد تخلي أمها عنها وزواجها من رجل مســلم، والعلاقة متوترة بين المرأتين ، "سارة" التــي عُرف عنها أنَّ في روحها الفياضة متســعاً للجميع بدون تمييز طائفيّ ، ولا تفرق في سعة صدرها وتعاملها بــين مســيحية ومســلمة لا تســتطيع أن تتقبل وجود "دميانــة" في حياتها ، حين تُقبل عليها "دميانة" تتجمد هذه الروح الفياضة ، ما الذي يحدث بين المرأتين؟! هل هي غيرة النســاء أم أن "عزازيــل" يكمُن لهما في درب المحبة حتى يُفسدَه عليهما ؟

في اليوم الأول الذي تقابلتا فيه لم تعرف "سارة" لماذا انقبــض قلبها ، العيون بوابة الروح ، وعيون هذه المرأة يسكنها الشرير ، هكذا همستْ لنفسها والمرأة الصغيرة

تدخــل عليهــا، كان عمر "دميانة" لا يتعدى الســابعة عــشرَ حين أحضرها "يوســف" إلى بيته لأول مرة ، بعد رحيل أبيها وإعلان أمها لإســلامها وزواجها من المســلم ظلت "دميانة" ابنة الخامســة عشر وحيدة في المنزل ، لكن الشــيخ "صالح" لم يتركها للوحدة والألم ، بل تولت الحاجــة "دولت" زوجتُه العناية بها ، وخاصة أن منزلها يقع في الجوار الشمالي لمنزل الشيخ ، تولى الشيخ رعاية أرضهــا ومحاصيلهــا ، وفي موعد الحصــاد كان يبيع لها المحصول ويعطيها الأمــوال دون أن ينتقص حتى أجرة العــمال الذين حصدوه ، كانت الشــابة تأخذ الأموال ؛ لتتعيَّش منها بعد أن انقطعت عن المدرسة بعد حصولها على الشهادة الابتدائية، كانت الحاجة "دولت" تذهب إليها كل مســاء لتطمئن عليها وترتــب لها الأمور ، وفي الصبح ترســل لها إحدى النساء اللاتي يأتين لمنزل الشيخ لخدمتها وشراء ما تريد من سوق الأربعاء .

عامــان مرَّا منــذ أن تزوجت أمهــا ، وانتقلت لبيت "محمود البكري" زوجها المســلم وتركتها دون أن يرفَّ لها جفــن أو يهمس قلبها بحــب صغيرتها التي صارت

شابة بعيداً عن عيونها ، عاشت "دميانة" الحياة في وتيرة واحدة لا تتغير تقريباً ، تقوم في الصباح تصلي أمام صورة المسيح المعلقة في المنزل ، ثم تعتني بتفاصيل يومها ، وحين يأتي المساء تصلي صلاة المساء وتذهب للنوم ، وفي يوم الأحد تذهب للكنيسة في ديرمواس كبقية الشعب المسيحي ، كان الأنبا في الأبراشية يطمئن على أخبارها بعد معرفته بموت أبيها ، وحين عرف أنَّ رجلاً مسلماً هو من يعتني بها عاتب الباش حكيم "يوسف" وزوجته "الست سارة" ، فقال له "يوسف" أنه لم يرد أن يفرض نفسه على حياة الصبية ، لأن الشيخ "صالح" يعتني بها هو وزوجته الحاجة "دولت" .

كانت رغبة المقدس "صبحي" أن يعتني صديقه به، ولو أراد لذهب ليوسف وأوصاه بابنته قبل موته ، لكن الأنبا لا يقتنع بهذا الكلام ، ويرى أنهم يتركون ابنة لهم في دروب العدو ، أكد عليه "يوسف" أن تدخله قد يُسَاءُ فهمُه ويوتر العلاقة بينه وبين الشيخ ، وأن أسرة "صالح" كلها لا يصلح أن يُطلق عليها "العدو" لأنهم يحترمون الشعب المسيحي وعلاقتهم بهم جيدة دون

تغطــرس أو تجبر ، وأضاف الحكيم "يوســف" للأنبا أن هذه العلاقة المســالمة بينه وبين أحد رموز المسلمين في القرية في صالح الشــعب المســيحيّ ، ولو تدخل سوف يُسَــاءُ فهمُ الأمر، ويأخذ نظرة طائفية ، وحينَها قاطعه الأنبا قائلاً له : "لن أسمح بأن تتربى ابنة من أبناء الشعب في بيت رجل مسلم" ، ردَّ عليه "يوسف" بوضوح : "الأمرُ ليس كما ترى أيها المُبجَّل" ، وحاول أن يقرِّب له الصورة ويخبره عن شــخصية الشيخ وعائلته، والرعاية النفسية والروحيــة التــي تتلقاها "دميانة" بينهــم ، ولو تدخل "يوسف" ســوف يُثير هذا حساسية قد تصبح غُصَّة في قلب الشيخ، حتى لو لم يخبره عنها ، وتحت ضغط الأنبا والكهنة وافق "يوسف" أن يرعى شئون "دميانة" .

بالطبــع قام "يوســف" باســتئذان الشــيخ مراعاةً للأصــول ، فتفهَّم الأخير بدوره ، وهــوَّن عليه الأمر بأن منزله هو منزل "يوســف" لا فــرق ، حتى يخفف عنه الخجل ، وكان أن ذهبــت "دميانة" لزيارة منزل الباش حكيم "يوسف" ، وكان أن همست "سارة" لنفسها بأن في عيون هذه المرأة الصغيرة يســكنها الشرير ، "سارة"

حينما دخلــت عليها الفتــاة أرادت أن تتصلب ، لكنها أدركتْ أنَّ زوجَها ســيغضب من هذه الحركة، فرسمتْ بســمة على وجهها لا تنم عن شئ ، ابتسامة تكاد تخلو من المعنــى ، وقالت لها : "أهلا بك يــا ابنتي" ، كانت عيون "دميانة" تجوب المنزل دون أن تستقرَّ على شئ ، فلم تنتبه للترحيب المصطنع من صاحبة البيت ، فنبَّهها "يوســف"، فغمغمت بكلمات لم تتبينها "ســارة" على وجه الدقة ، لكنها فهمت أن المرأة الصغيرة ترد التحية .

اتفق "يوســف" مع "دميانــة" أن تأتيَ للمنزل في أي وقت من ليل أو نهار، وأنه ســوف يمر عليها هو أو أحدُ أفراد عائلته ليروا طلباتها ، فشــكرت الرب وشكرته ، ثم عادت لمنزلها ، وحين دخلت حجرتها جلست أمام صورة كبيرة لأبيها تتوسَّط الجدار، وفيها يلف الأب رأسه بشال رماديّ ويضع يدَه اليمنى أســفل ذقنه متفكراً شــارداً، والخاتــم الفيروزيّ يــكاد يُضِئُ الصــورة ، تأملت كثيراً في الصورة ، ثم تشــنَّجت وبكــت وعاتبته أن تركها لمن يتفضــل عليها ويعتبر رعايتها صدقــة يتصدق بها لنيل رحمة الرب .

في زحمة انفعالهـا لم تتوقف كثيراً أمام زوجة الباش حكيم، تذكرت نظراتِها المستريبة ، وحاولتْ أن تتذكر أيَّ تفاصيـل أخرى عن اللقـاء ، فلم تفلح ، طردت صورتها من رأسها ، وصلَّتْ صلاة المساء ، ثم دخلت للنوم .

في اليوم التالي قامت متثاقلة حزينة ، جلست تسترجع أحداث اليوم ، فلم تعرف سـبباً لكل هذا الحزن وهذه الكآبة، ثـم تذكرت أنها بدخولهـا في رعاية أسرة الباش حكيم سوف تفتقد شـيئاً لم تعترف به يوماً ، لكنَّه قفز إلى وعيها في تلك اللحظة ، إنَّ وجودَها في كنف الشـيخ "صالح" يتيح لها أن تستمتع بوجودها في محيط عيون ابنـه "عبد القـادر" ، صحيحٌ أنها لم تعـترف يوماً حتى لنفسها بسـعادتها وهي تراه أو تتحدث إليه ، لكنها كانت تنتظر أن يأتي إليها بما تحتاج ، بل وكانت تشـعر بالإحباط حينما يأتيها بالطلبات أحدُ رجال الشيخ ، لكنها أبداً لم تعترف بهذا الأمر حتى لروحها ، فكيف يمكن أن تتصور أن تميل لشاب مسلم ، وقد دمَّر حياتها وخطف منها والدها رجل مسـلم آخـر تواطئت معه أمها؟! بل ربما يكون "ابن البكري" قد خطط هو وأمها لقتل أبيها

كما تقول الشـــائعات في القرية ، فكيف تشعر بالارتياح في وجود شـــاب مسلم؟! هي لم تستطع أن ترفض رعاية الشـــيخ وزوجته لها ، ليس حبَّاً فيهـــما ، بل رعباً وفزعاً من المخاطـــر التي يمكن أن تتعرض لها لو رفع الشـــيخ حمايته عنها ، هي تدرك حساســـية وضعها ، لذا قبلت بـــأن تكون في رعاية من تعتبرهم أعـــداءً محتملين لها ، فكيف تتصور أن تميل بشعورها نحو "عبد القادر" ، هل يمكن لها أن تحب العدو؟ ورغم ذلك كان وصول "عبد القـــادر"، وتعمده أن يتنحنـــح وهو يضع ما يحمل لها على عتبة الـــدار حتى ينبهها ، ولا يقتحم عورتها هو ما تنتظره كل يوم ، كانت تقبل عليه وهي ملهوفة وبهجة عارمة تملأ روحها ، لكنها كانت تخجل من نفســـها ومن بريـــق عيونها وهو يحدثها ، وحين ينصرف كانت تؤنب روحها التي تكاد تقع في غرام العدو!!

بمرور الوقت كثر ذهابُها إلى منزل الحكيم "يوسف"، كانـــت "ســـارة" تعاملها ككـــم مُهمَـــل ، لم تكن تفهم "دميانة" ســـبباً لهذه المعاملة ، لكنها كانت تســـاعدها في غلي الحقن وتجهيز قطـــع القطن حين تمتلئ الغرفة

الخلفية بكثير من النســاء ، وضجيج أطفالهن ، وكانت النساء يتســائلن عن وجود "دميانة" وبنت من هي؟! وكانت "سارة" تخبرهن بإجاباتٍ مراوغةٍ يُفهَم منها أنها مجــرَّدُ فتاة يعطف عليها الباش حكيم ، هذه الإجاباتُ غــيرُ الواضحة كانت تُشــعِرُ "دميانــة" بالإهانة ، فترد بغضب على من تســألها وتخبرها أنها تســاعد الســت "ســارة" محبة في يســوع وأمه المباركة ، وأنها لا تعمل هنا بأجر ، وتذهب إلى بيتها ولا تعود إلا بعد أن يذهب إليها الباش حكيم "يوسف" يطيب خاطرها ويخبرها أن "سارة" طيبة وتعتبرها ابنتها .

كانت رحلة الأحد إلى الكنيســة بصحبة هذه العائلة الطيبة رحلة مُلتبسة ، لم تكن تحدد "دميانة" مشاعرَها نحو الباش حكيم وأسرته ، لكنها لم تكن على ســلام مع زوجته، كان التجاهل والإهمال متبادلاً من المرأتين ، ولم تكفِ روحانيات الكنيسة والترانيم التي تصاحب القداس وعِبَرُ القديسين والشهداء لإذابة ذلك الجليد بين المرأتين، كانــت الحاجة "دولــت" بابتســامتها الحانية وصوتها الرخيم والشــيخ "صالح" الرجل الذي يكاد يشــف من

كثرة المحبة أقرب إلى روح "دميانة" ، كان اهتمام "عبد القـادر" هو مصدرَ الفرح بالنسـبة لهـا ، لكن مع كل هذا التعقيد في علاقتها بالمسلمين لم تسمح لنفسها بأن تفتقدهـم أو حتى تحنَّ إلى التواصل معهم ، وحين قرر "يوسـف" أن يفاتحها في تزويجها من ابن أخته "حنا" لم تجد سـبباً قوياً للرفض ، فلـن تحدثه مثلاً أنها تمنَّت في أوقات كثيرة أن تتزوج من "عبد القادر" ، ولن تخبره مثلاً أنها كانت تجد نفسـها وسط هذه العائلة المسلمة التـي وثق فيها أبوهـا وأوكل إليهم حمايتها ، بل قالت له أنها توافق على الزواج من "حنا" وهي التي لم تشعر معه بلحظة فرح واحدة ، تُرَى ما الذي غيَّب السـعادة من روحها إلى هذه الدرجة ؟!

قال لها الأبُّ الاعترافيّ في إحدى المرات التي اشـتكت له فيها خواءَ روحها وعدمَ إحساسها بالسعادة في حياتها مع "حنـا"، قال لها : "يا ابنتـي أحبِّي ما في يدك حتى يحبك يسـوع ، وابحثي لروحك عن مسالكَ للسعادة حتى تسـتطيعي تجاوز عثرات عزازيـل التي ينثرها في طريقك حتى تتعثري وتضلي عن مملكة السماء" ، فلم

تخــبره عن كراهيتها المكتومة لســارة ، وكان أن تنبَّهت وفتحــت عينيها على اتســاعهما حتــى تتجنَّب الفخاخ والعثرات ، وكان أن أنجبت صغيرة ممتلئة حياة وبهجة مثل "فــردوس" فواحــة ، وكان أن أحاطتها كما تحيط خيوط الحرير بدودة القز .

***

قــوة الألــم

الذكريات الســعيدة أقــلُّ قوة واقتحاماً للمشــهد ، بل تمثل النســبة الأكبر من هامش الشــعور ، أما المؤلمة فهى أكثرُ تدافعاً وصخباً ، حاولتْ أن تمســك بالذكريات القليلة السعيدة في حياتها وتثبت الكادر ، علَّها تتمكن من طرد كل هذا السيل من التعاسة ، صوت أبيها وهو ينهــر أمها ، حتى تتركها تشــاهد عرض الأراجوز في عيد "العدرا" يجعل روحَها تطير لســماواتٍ بيضاء ، وتمسك بنتف الســحابات المتكاثفة ، صوته الحاني يقول لها: "لا تحزني يا فردوس لن نذهب وســوف نشاهد الأراجوز"، أمها تــصر على الانــصراف حتى يتمكنوا مــن الرجوع قبل أن يحل الظلام وتعــزِّ المواصلات لقريتهم النائية ، وهي لا تريد أن تغادر وضحكات الأطفال تتحول لورود وفراشات ، غضب أمها المفزع ورهافة أبيها جعلاها تقوم منكسرة وتمســك بيد الأب ، الأب الذي يكاد يشف من حنانه ينظر للمرأة القلقة بتحنان واســتعطاف ، يهمس

لها أن تتركهم قليلاً حتى تستمتع ابنتها بعرض الأراجوز، أو تشــارك الصغار في اللعب على الأرجوحة ، لكنها تصر على موقفهــا ، وتعيد حديثها عــن مخاطر الطريق إذا عادوا ليلاً إلى قريتهم ، يذكرها الأب بأن "يسوع" سوف يحميهم في طريق العودة ، فمن غير المعقول أن يتخلى المسيح عن أبنائه الذين قدموا في محبة أمه البتول، لكن المرأة المسكونة بالفزع من كل شئ حتى من تيار هواء يغافلها ويتســلل إلى حجرة ابنتها الصغيرة تسُــدُّ أذنيها عــن كلمات الطمأنينة التي يبثها الأب في روحها ، تنظر الصغيرة إلى الأب وتبتسم ابتسامة مطمئنة وتهمس:

ـ "خلاص يا بويا نمشي ، أنا اتفرجت كفاية!" .

وكان أن ذهب الأبُّ محبطاً وتعيســاً ؛ لأنه لم يحقق لابنته الفرح اللازم لروحها ، واستجاب للوسواس القهريّ لزوجتــه ، لكن الصغيرة كانت تتفهم قلق أمها وإحباط أبيها ، فلم تزد بكلمة حتى لا تجعل الأب يشعر بالانهزام النفسي أمام تعاسة الأم التي تغرقهم فيها .

الهــواء الحادّ يكاد يجــرح بشرتها ، لسَــعَات الهواء تواصــل جرحها ، وهي تــصر على فتح الزجــاج، كأنها

تستعذب آلام ذكرياتها ، الهواء الغاضب يُفَزّع اللحظات السـعيدة التي تتوالى تَتْرى على ذاكرتها ، طعم الحلوى الورديـة التي مـلأ بها أبوها جيوبَها يضيع من لسـانها تحـت ضربات الهواء الغاضب ، هل كانت حلوى مولد العـذراء التي ملأت بها جيوبها كافيـة ، لأن تغفر للأم حرمانها من لحظات السعادة الغامرة التي كانت تشعر بها وهي تسمع صخب الصغار ، وهم يشاهدون عرض الأراجوز؟! لا يبقى من سـيلان الذاكرة سوى الذكرياتُ المؤلمـة، كأن قوة الألم تُوجِدُ لها مكاناً في الذاكرة ، وكأنَّ الذكريات السعيدة القليلة هشة لا تصمد أمام ضربات الهواء .

ما زالـتْ ضربات الهواء تسـتعر، والسـيارة تسرع في عمـق الصحراء ، وهـم متجهون إلى دير القديسـة "دميانـة" ، القس يعاود الالتفات إليها ويطلب منها أن تغلق النافذة ، السـائق ينظر نحوَهـا في المرآة وينتظر أن تتحـرَّك يدها وترفع زجاج النافذة بناءً على رجاءات القـس المتكررة ، صوت الأرغـول في قداس الأحد قبيل الذهـاب لمولد أم المخلـص يقاوم التـلاشي في ضربات

الهواء العشوائية ، صوت الكاهن يعلو:

من جبل الحزن آتٍ إليك يا عذراء ..

يا أمنا وأم مخلصنا ..

والكورس خلفه يردد :

" صلي معي يا البتول ! صلي معي !" .

ابنة مفتش الزراعة الخواجة "هارفي" صورتها تتشكل عـلى زجاج السـيارة ، ثـم تتلاشى ، اسـمها يغيب عن ذاكرتهـا، هل يُعقل أن تنـسى "ماريا" صديقة الطفولة والشـباب والوجع؟! يحضر الاسـم على طرف لسـانها، تـكاد تنطـق به ، ثـم يضيـع ، صخب الهواء يشـتت ذاكرتها، فيضيع الاسم مرة ثانية وثالثة، ثم تنفتح طاقة مـن نور ، وتنثـال ذكرياتها مع "ماريـا" ، هكذا كانت تناديهـا معلمة الدين المسـيحيّ حين كان المشرف على الدور يأخذ الأولاد والبنات المسيحيين إلى معمل العلوم، لتقوم الأستاذة "جيهان" مدرسة العلوم بتدريس الدين المسـيحي ، لعدم وجود فصل مخصـص لهم ، "ماريا" كانت سـمراء كوجه لوحته شمس أغسطس ولها عيون

خضراء ســاحرة خضرة الحقول في فصل الربيع ، شــعر ذهبــي كســنابل القمح الناضجة، كانــت تضحك معها وتخبرها أنها تجمع كل الفصول في جسدها ، ولما كانت "ماريــا" ابنة الثقافة الإيطالية التي ولدت في القاهرة لم تكن تفهم ماذا تقصد بهذا التعبير ، وكيف لها أن تجمع الفصول الأربعة في جسد واحد؟!.

وحين كُنَّ يقفنَ على مسرح مدرسة الأحد وينشُدْنَ ، كانت "ماريا" تردد مع الكورس دون أن تعرف للكلمات معنــىً بدقة، لكنها كانت تردد الجمــل وعيونها تمتلئ بالدمــوع ، لا تعرف لماذا تبكي ، هل تبكي حياة ســابقة تركتها في روما ؟ أم تبكي حياة قادمة سوف تعيش الحزن فيها كما ينبغي أن يُعاش:

"ليزهر الحزن فرحاً ، والفرح محبة !

لتغرق الأرض بالسلام ، يا لون السلام صلي معي !

لتنفتح كل الأبواب ، أبواب الظلم ، كأن الريح نور!

يا دفء النور، يا دفء النور صلي معي !

يا أم المخلص يا مريمية يا نور النور !

يا سيدة فوق النساء يا مباركة في العالمين !" .

الرياح تعــوي في الصحــراء ، والديرُ مــازال بعيداً ، الكاهــن يصلي صلواته في صوت مكتــوم لا يكاد يبين ، روحهــا تتنازعها الهلاوس والوســاوس ، لا تعرف كيف ســتكون حياتها في الدير، أخذت القــرار بعد أن تعبت الأم المقدســة في إقصائهــا عنه ، ودفعها لتغــير رأيها ، طلبت مــن الأب الكاهن أن يســاعدها، تريد أن تقنع الأم المباركــة في ديــر القديس "فيلوباتير أبو ســيفين" ، أصرَّت أن تجلــس معهــا قبل أن تتخــذ قرارها ، حكت لها بوضوح ودون مواربة عن زميلها المسلم الذي خفق قلبُها له ، حكتْ لها عن زواجها الفاشــل ، تعوذت الأم من الشــيطان الذي يتربَّص لبني الإنســان في كل درب ضيِّق وليل مُظلم ، قالت لها:

ـ "يــا ابنتــي : يســوع لا يريد من يأتيــه هرباً من الدنيــا! لن يقبله عنده ، بل يقبل من يترك الدنيا زاهداً في متعهــا راغباً في محبَّة الرب ، حين يصير حبُّ يســوع في قلبك باتساع الســماء ولا يجد أحدٌ من بني الإنسان مكاناً ولو بحجم خردلــة في ذلك القلب المتوله في حبه

ســاعتها ســوف يتقبلك! وحتى يحين ذلــك اذهبي إلى الحياة ، عيشي في طاعــة الرب وعودي لزوجك ، عودي ولا تسمحي للخطية أن تنهش روحك ، تذكري يا ابنتي أنَّ حياة الراهبة بدايتها يســوع ووسطها جهاد ونهايتها الأبدية، لن أســتطيع أن أقبلك يا ابنتــي طالما قلبك ما زال مُعلقاً بالدنيــا، يخبرنا القديس أنطونيوس أنه "كما أن الســمك إذا خرج من الماء يموت ، كذلك الراهب إذا خرج من قلايتِه يموت خــوف الله من قلبهِ" فهل أنتِ قــادرة على مقاومة الدنيا والدخول إلى تجربة عليك أن تتخلي عن كل شئ من أجلها ؟" .

حين أصرَّت رئيســة الدير على أنها ليســت مستعدة بعدُ ، خرجت كســيفة البــال حزينة مع الأب الراهب ، وحين وجدها تصر على الرهبنة قال لها :

ـ " يــا ابنتــي : الراهبة يجب أن تهــبَ حياتها كلها للــرب، دون أن ينازعه فيها أحد لا زوج ولا أبناء ، ومع ذلك ســوف أســاعدكِ كما ســاعدتُ الأخت "مارســا" الراهبــة التــي طاولت الرجال في مقــام تعبدها للرب! كانت مثلك يا ابنتي ، ويزيد أنها كان لديها ســبعة من

الأبنــاء وزوج تعيس ، صبرت على كل الآلام والعذابات التي لحقتْ بها من هذا الزوج المهووس بالنساء ، كانت مهنتــه كتاجر مُصوَّغــات ذهبية ومجوهــرات في أكبر شــارع بالمنصورة توفر له كل ما يبحث عنه من فرائسَ وطرائــد ، وفي كل مــرة يعود إلى سريرهــا تعرف يقيناً أنــه كان مع أخرى ، لم ينطق لســانُها بجملةٍ تخبره بها أنهــا تعرف يقيناً كل ما يفعل ، لكنها لم تكن تصبر على رائحة المعاصي التي تأتيها من جســده ، كانت تنفر منه وتتجنَّب غضباته الوحشــية حفاظاً على الرباط المقدس والقســم الذي قطعته على نفســها في كنيسة العذراء ، لكــن طاقة احتمالها نفــذت ، فكانت تجلس في صمت أمام تمثال العذراء في الحجرة الداخلية من المنزل ، تشعل الشموع ، وتســح دموعها مع سيلان الشمع الساخن ، ولا تنطــق بحرف ضده ، تخــشى أن تناله غضبة مريم المباركــة، ليالٍ كثيرة زارتها العــذراء وأخبرتها أن تذهب إلى الدير ، دير الشهيد "ماري جرجس" بميت دمسيس في المنصورة ، ولما كانت تســأل المباركة كيف أذهب إلى دير للرجال ، كانت تبتســم ابتســامة حانية وتذهب ، وفي الليلة التالية تكررعليها طلبها ، كان قس الكنيســة

لا يســتوعب ما تقول له المرأة التي تنضح تعاسة وألماً ، في كل مرة تخبره بما تقوله العذراء ، وفي كل مرة يرفض، وحجتــه واضحــة : " الرهبنة لا تجوز لمــن لديها أسرة وزوج وأبنــاء ، البتولية شرط مــن شروط الرهبنة ، كما أن النساء إن ترهَّبْنَ يذهبنَ لدير للراهبات ، وليس لدير القديس ماري جرجس ، دير الرجال" .

ثم جاءت إليّ في موعد اعترافها الشــهريّ ، وســحَّتْ دموعُهــا وهي تحكي عن حلمها وعــن رجلها الذي هو لكل النســاء إلا هي ، حدثها القس عن تاريخ الكنيسة القبطية وتاريخ الرهبنة، فالرهبنة هى أمرٌ كان فى قصد الله من قبل تأســيس العــالم ، فهناك بعض الأحداث فى العهد القديم تشــير إلى أن الرهبنة سوف تكون فى يوم من الأيام هــى المنهج لكثير من القديســين ، لكنها لن تستطيع الرهبنة وهي في حالتها هذه ، ولو حدث فدير الرجال ليس مكانَها .

قبيل موعد اعترافها الشهريّ رأيتُ العذراء في حلمي، كانت هالة النــور تُضئ وجهها ، الضياء يشــع ليغطي ما بين الســماوات والأرض ، اقتربتُ من النور المُشِــعّ ،

فهتفتْ باسمي وقالت :

ـ "سـوف تعبر الضياء أيها الأب! طريقك للفردوس يبدأ حين تأخذ بيد مارسـا التعيسـة لحظيرة يسـوع! ساعدْها أيها الأب تجدْ طريقك لمملكة الرب!" .

حـين جاءت الأخت "مارسـا" حكيتُ لها عن رؤيتي لأم المخلص ، كما حكيتُ لها عن راهبات كثيرات ارتدين ملابس الرجال ، وغيَّبْنَ أنوثتهن وعِشْنَ بين الرجال دون أن يكتشفهُنَّ أحد ، ولم يعرف الرجال الذين جاوروهن في الأديرة بحقيقتهن إلا ساعة الموت والإعداد للدفن .

سألت الأخت "مارسا" الراهب : هل يمكنها أن ترتدي ملابـس الرجال وتذهـب للدير ، كما أخبرتهـا العذراء البتول في أحلامهـا المتكررة ، فحكى لها عن امرأة كانت ابنة والي "البرلس" وكان يحكم مسـاحاتٍ كبيرة جداً في الدلتـا وأضيفت الفرما (بورسـعيد) إلى سـلطته عندما أشـعل بخوره للأوثان ، لكن ابنته القديسـة "دميانة" زارته في قصره وأخبرته أن اليسـوع ابـن البتول يطلب منه ألا يركع في حضرة الأوثان وألا يُبخِّر لها ، بعد زيارة ابنتـه "ضحى" بكل ذلك وصار شـهيداً ، فوجئ بتحول

رهيب في شـخصية ابنته ، حينـما وقفت أمامه تحدثه عن المسـيح والبتـول أمه و"يوحنا المعمـدان" ، كانت عيونها تشعُّ بريقاً مُخيفاً ومهيباً ، لم يستطع الأب الذي كان يحكم باسـم الرومان الوثنيين أن يناقش ابنته فيما تقول ، باركته الابنة التي تركت العالم وعاشـت فى حياة الرهبنـة ، ولم تكـن تفكر فى يوم من الأيام أنها سـوف تعود لتوبِّخ والدها بل تحثه على الاستشهاد ، كانت قد تركته وعاشـت فى برية الزعفـران مع العذارى فى حياة روحية جميلة كلها صلاة وتسبيح ، ولم تكن تفكر مطلقاً أنها سـوف تكون شـهيدة ، أوأنها سـوف تقود والدها إلى الاستشـهاد ، لكن حينما يريد الله شـيئاً فإنه يحرك الأحداث لأنه هو محركها ، بعد أن أعلن والدها دخوله المسيحية ونبذ الأوثان أتى جنود الرومان وصلبوه ، ارتدت القديسـة ملابس الرجال وعادت للصحراء مرة أخرى ، لتواصل عبادتها هي ومجموعة النساء في صحبتها ، لم تمر أيام حتى وصـل جنود الرومان ، اقتحموا عليهن الدير، وأمروهن بعبـادة الأصنام ، فرفضت ، وقالت للعذارى: "من تريـد أن تهرب فلتهرب" ، فرفضـنَ وصِرْنَ كلهن شهيداتٍ معها ، بعد أن قطع الرومان رؤوسهن جميعاً .

برق الأمل في عيون "فردوس" بعد أن سمعت حكايا عن راهبات سابقات سلكْنَ طريق "يسوع" ، وسألتْ راهب اعترافها : هل سيساعدها حقاً في عبور هذه العتبة المقدسة؟ كيف تتغلب على فكرة زواجها السابق، رغم أنها بتول كما يعرف ؟!

قال لها : "إنَّ البتولية شرِكَة عميقة مع الله ، وأنها ليست غاية في ذاتها ، إنما هي طريق للدخول العميق في المَعِيَّة الإلهية ، وأن الاتحاد مع الرب بِداية شوطها ونهايتها ، ولهذا سَلَكَ فيها كثيرون كطريق ضيِّق لكن ليس مستحيلاً ".

قال لها أنَّ هذا سيكونُ آخرَ طريق يسير بها فيه، وعدها أن يذهب معها للبابا يعرض عليه قضيتها ، ورغبتها في الالتحاق بالدير، سوف يحدثه عن سيرة الألم التي تتشرنق حول روحها، وهو متأكد من شجاعة البابا، وحتماً سيتخذ قراراً مُنصفاً بحقها ، وحين استمع البابا لحكايتها قال باسماً :

ـ "يا ابنتي : أنتِ بتول كما العذراءُ المقدسة ، إنَّ جسدكِ المقدس الذي لم يتلوث بخطيئة زوجك يقودك

للديــر!" كتمتْ فرحتهــا ، فقط ســمحتْ لدمعتين أن تنحدرا من جانبي عينيهــا، وقبَّلتْ يد البابا في صمت ، قال لها البابا:

ـ " فقــط اذكرينا في صلاتكِ أيتهــا الطاهرة البتول ، فكنيسة الأبكار هي أعلى مرتبة في الملكوت السماويّ ، بل هي أرقى الدرجات التي ســيرتقيها البتوليون باعتبارهم أعضاء في كنيســة الأبكار ينعمون بِشَرِكَة تبعية المسيح البِكْر ، وأنتِ بكر يا ابنتي روحاً وجسدًا حتى لو شاركتِ زوجَــكِ سريره" ، ذهبتْ مع راعي روحها وأب اعترافها واتجهت للدير .

***

حين يُسيّد يسوع أبناءه على أرواح النساء

تختلف الحياة فى أديرة الراهبات عن الحياة فى أديرة الرهبان ، ليس على مستوى تصميم الدير وتقسيمه ، لكن على مستوى هيكلية السلطة فيه ، دير الرجال يقيم قداس الصلوات فيه أب راعٍ، أما دير النساء فلا يُسمَح للأم الراهبة أن تقوم بالصلوات فيه ، بل تنتظر أن يأتي الأب الراعي من كنيسة أو دير قريب ليقيم لهم قداس الجمعة وقداس الأحد، منذ نشأة الرهبنة والوضع هكذا ، وحين حاولت إحدى الراهبات في زمن بعيد التمرد على السلطة الدينية للرجال اتُّهمتْ من قِبَل الكنيسة أنها تخرج على ثوابت المسيحية ، بل وشُوِّهتْ صورتُها في أعين الجميع حتى لا تفكر راهبة مَّا غيرُها أن تتخذها مثالاً ، وصل التشويه حدَّ اتهامها بالهرطقة وممارسة سحر الفراعنة وعبادة أوثانهم ، وحُكم عليها فوراً بالموت ، وحين وقفت لتُصلب في نيران الصحراء

تلــتْ صلواتٍ بلغة الوثنيين كــما يحكي قدامى الرهبان لكل من يأتي للدير حديثاً ، ونادتْ قبل صلبها "إيزيس" و"حتحور" وطالبت بعدالة "ماعت" ، هكذا أرادوا لها حينما اعترضتْ على سلطة الرجال على أرواح النساء.

لا أحــدَ يريد أن يناقش هذه المشــكلة ، فكيف لمن تنقطع للعبادة في معية "يسوع" تعتبرها الكنيسة كائناً ناقصاً غير مهيأ لقيادة القداس؟ وكيف تســمح الكنيسة للرجال بممارســة ســلطات لا يجب أن تكون لهم على راهبات تخلصن من كل ما هو دنيوي؟!

يــأتي الأب القس مرتين في الأســبوع ، يــوم الجمعة ويــوم الأحد، يقيم القداس ، بــل ويتلقى الاعتراف من الراهبات، ويحل المشاكل التي تواجه الدير ثم يذهب ، ورغم أن له حجرة مخصصة في الجزء الخلفي من الدير إلا أنه لا يبيت فيها غالباً ، بل يمكث فيها بضع ســاعات ثم يرحل على أن يعود في موعد القداس القادم .

إن نظــام الرَّهبنــة بدأ مــن هذه الأرض المقدســة، "كيميــت" التــي اخترعــت الأديــان ، أسَّــس الرهبنة

الأنبـا "أنطونيوس الكبـير" الذي يُطلق عليه تسـمية "أبي الرهبـان" ، فكل الشـعب المسـيحيّ يعرف دور الأنبـا أنطونيـوس " أب الرهبـان"، كما يعـرف الأنبا باخوميوس"أب الشركة" وكان لكل منهما نظامه الخاص الذى أسـس عليه الرهبنة ، إلا أنَّهما هما - الاثنان - قد وضعا قواعد الرهبنة النسـائية ، مؤكديـن أنه لابد أن يكون الأب المشرف على أديرة النسـاء رجلاً كبيرَ السن، وترأس الدير راهبـة كبيرة يتم اختيارهـا وفقاً لقواعدَ روحيةٍ مُحدَّدة.

ورغـم ذلك ثمَّة قصصٍ وأسـاطيرَ يتـمُّ تداولها حول نسـاء راهبات دخلن الرهبنة من خـلال عالم الرجال ، حيث تخفين وغيَّبنَ أنوثتهن ودخلنَ كرجال بين الرهبان، وتكـررت هذه القصص عبر العصور ، لا يخلو عصر من راهبة أسـطورية لم تتخلَّ فقط عـن الحياة وتدخل في البتوليـة ، بل تخلت حتى عن أنوثة جسـدها وتخفَّتْ في ملابس وشكل الرجال حتى تُعامل كراهب ند لهؤلاء الذين يحظون بالسلطة الدينية دونهن .

تُحــكى قصصُ هؤلاء الراهبات الــلاتي تخفَّينَ في أزياء الرجال ، ودخلن الأديرة ، ولم تُعرف هويتهن الجنســية والنفسية إلا بعد وفاتهن ، وساعتها كان الوعي الجمعيّ للشــعب المسيحي يحول هؤلاء الراهبات إلى قديسات، تُرْسَــمُ لهُنَّ صورٌ أســطورية يتــم تداولها من جيل إلى جيل، وتمثل عصب الحكايات التي يتم تمثيلها في مدارس الأحد في كل أبراشيات الشعب المسيحي .

كما تُحكَى قصصٌ وأساطيرُ عن نساءٍ انفصلنَ منفرداتٍ عن العــالم والدنيا ، وذهــبْنَ إلى الصحــاري متوحداتٍ مــع الرب ، لا يحملن من الحياة ســوى ما يقيم الأوْدَ ، ويدخلــن في حالات من العبادة المتوحــدة مع الله ولا يعــرف أحد على وجه الدقة من أيــن يأتيهن المَدَد من الطعــام والــشراب ، فكل الحكايات التــي تُحاكُ عنهن لا تبرر للســامع من أين تتعيش هــؤلاء اللاتي انفصلن عن العالم الحيّ ، لكن المخيلة الشــعبية تنسج القصص والحكايات عن ملائكة الرب التي تتكفل بالماء والطعام والفاكهة ، ألم تكن "مريم" أم "يسوع" يأتيها ملاك الرب بفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء؟! ألم

تكن تُســئل يا مريم: من أين لك هذا ، فتجيب واثقة : هو من عند الله؟! صنعت المخيلة الشعبية حول هؤلاء النساء الهالاتِ المقدسة ، أولسنَ حفيداتِ مريم ؟!.مَّجِّد الله للأبد !

***

قال التائه لقدمه تعالي نمشي من شارع لشارع لعلَّ الطريق يعرفنا أو نعرف نحن الطريق

كانــت "دميانة" التائهــة في دروب حياةٍ لم تكن من اختيارها لا تريد من هذه الحياة ســوى السلامَ لروحِها ولابنتها ، رضيت بقدَر الزواج من "حنا" الذي لم تختره ، لكنها لم تستطع أن تكون له كما تكون الزوجة الطامحة في الملكوت ، هذا التاريخ الممتدُّ من الألم حالَ بينها وبين حيــاةٍ يُفترَض أن تكون مليئة بالمحبَّة والتحنان ، لم يكن ذنبُها تماماً أن فقدت روحها في دروب الألم، أشياء كثيرة كانت تواصل اغتيــال روحها لحظة بلحظة ، كل لحظة ألم مرَّت بها قتلت جزءاً من هذه الروح ، ربما بداية الألم كانت مع مناداة الصغار لها في دروب القرية "النصرانية بنت العايقة" ، ولم تكن تفهم تبريرات أبيها ومســاندته لها ، رغم عشــقِها له ، لا شــئَ مما يقول كان يساعدُها على اجتياز الألم ، لم تعرفْ أبداً هل شاركت أمَّها في قتل أبيها أم أن قدر الله أن يموت الرجل في عز قوته وشبابه؟

هل قتلته فعلاً هي والمسلم الذي تزوجته أم أنَّ قدرَ السماء هو من خطف أباها منها ؟ لكنَّ طريق الآلام يستمر ، وتكون مشيئة الرب ، حبها الذي لم تسمح لنفسها في التفكير فيه كان أيضاً يُميتُ بعضاً من روحها، ماذا لو أنها سمحت لنفسها أن تعبر عن حبها لعبد القادر وتتزوجه مثلما فعلت أمها ؟ كان يمكن لها أن تظلَّ في معية الرب "يسوع" ، وتتزوج مسلماً ، فالإسلام يُبيح لها الاحتفاظ بديانتها ؟! ألم تجد في منزل الشيخ وزوجتِه الحنان الكافي لأن تنتمي إليهم ولا تتخذهم أعداءً رغم كل ما قدموه لها من تسامح ؟!

"حنا" زوجُها الذي بذل في سبيل إرضائها كلَّ السبل لماذا لم تسمح لنفسها أن تحبَّه؟! لماذا لم تسعد معه؟ لقد كان حنوناً عطوفاً يتحمَّل غضبها وقلقها الدائم، فلماذا لم تسمح للسعادة أن تأتيَ إلى بيتها ولو لمرة وحيدة؟! ما الممتع في القلق والحزن جعلها تتخذهما طريقاً لها دون كل طرق بني الإنسان؟!

لقد أقصَتْ من حياتِها كلَّ سبل المحبَّة حتى "سارة" التي كان من الممكن أن تتخذها أماً تعوِّضها عن قسوة

أمها لم تبذل جُهداً كافياً للتقرب منها ، صحيحٌ أن "سارة" هي من أقامت السدود في طريق روحِها ، لكن كان من الممكن لهـا أن تخط طريقاً للتواصـل معها كما أمرها "يسـوع" ابن أمه المقدسة ، تُرَى ما الممتع في الألم حتى تتخذه طريقاً وحيداً ؟!

كلُّ عـثرة تعثرت فيها كانت تُمِيـتُ بعضاً من روحِها حتى تحوَّلـتْ لامرأة يمكن للناظـر في عينيها أن يقول بثقةٍ تامةٍ دون أن يرمش له رمش : "هذه امرأة ملعونة تمامـاً " ، وربما تكـون لعنتها كتبت عـلى بؤبؤ ضفدع يتيم وأطلق في نهر بعيد مظلم غطاه الجليد في صحراء "ألاسكا" ، أي قدمين ينقلان صاحبهما في دروب التوهان كـما حدث لدميانـة أم فردوس التي غالتْ في حراسـة روح ابنتها حتى أنها عذَّبتها بهذه المحبَّة .

***

حين بكت قبرة وحيدة

انتشرت الرهبنة النسـائية منذ النصف الثانى للقرن الرابـع، ويؤكـد البعض وجـود عدد كبير مـن الأديرة النسائية فى ذلك الوقت حتى أنه يُشاع أنَّ عدد الراهبات فى القرن الـثالث عشر قد وصل إلى عشرين ألف راهبة فى الصعيـد وحده ، إلا أن هذه الأديـرة لم يعد لها أثر الآن سـوى أديرة "أبو سـيفين" و"مارجرجس" ودير " العذراء" بمصر القديمة ، ودير "العذراء" في حارة زويلة، ودير " السيدة العذراء " ببراري بلقاس .

وهـذا الدير هو ما اختارته "فردوس" ؛ لتسـتقرَّ به لسـنوات طويلـة ، كانت فرصـة جيدة لهـا أن تتأمل حياتهـا عن كثـب ، أن تتدبَّر علاقتها بالسـماء والروح القدس، كما تتأمل علاقتها بأمها وأبيها وزوجها وكل من مـرَّ بحياتها، سـوف تعترف في لحظة فارقـة بينها وبين نفسـها أنها أخطأت حين اتخذت قرار الفرار والغياب،

وأنهـا لم تمتلك القوة الكافية لمواجهـة القبح والانتصار عليه ، وتمنَّتْ في مرَّات أخرى كثيرة أن يمنحَها "يسـوع" الفرصة مُجدَّداً ؛ لتعود إلى الحياة التي تركتها علَّها تعيد تنظيمها، وتتجاوز الأخطاء القاتلة التي ارتكبتها .

كان موعدُ دخولها دير القديسـة "دميانة" في براري بلقـاس يوافق عيد الأم المقدسـة ، عيد انتقال "مريم" الكلية القداسـة إلى مجد السماوات بالنفس والجسد ، بكامل كيانها البشري، بكامل شـخصها ، بكتْ قبرة على شـجرة من أشـجار الكافور العالية التي تظلل أسـوار الديـر ، وهرب أرنب بريّ ربما كان يبحث عن طعام في الـبراري الآمنة ، وعندما اقتحمت عليه أضواء السـيارة فرَّ الأمانُ الذي كان يشـعر به ، ولهذا اختفى في جُحره دون أن يحصـل عـلى ما خرج للبحـث عنه ، وفي بيت مظلـم في قرية نائية في الصعيد تجلس امرأة تراجع كل حياتها، وتبكي أمام تمثال العذراء على سـنوات فرَّت من بـين أصابعها، مارس فيها الجميـع عليها قهره وظلمه ، وتفننت الدنيـا في تكديرها بأن أخذت منها أباها الذي كان يشـبه الملائكة كـما كانت تظن ، لكـن غدر بني

الإنســان لم يمهله حتى يطمئنَّ عليها، وزوج أفنى حياته في خدمــة الآخرين مُعطياً خدَّه الأيــسر لكل من هبَّ ودبَّ ، وابنة رحلت بشبابها إلى الدير طالبة للخلاص، يد الأم المقدسة تُربِّت على روحها ، لكنَّ الوجع كان شديداً، ألمُها على رحيل ابنتها للدير يمزِّق نِيَاط قلبها ، همســتْ لنفســها في ظلام حجرتها : "ما الخطية التي ارتكبتيها يا دميانة حتى تهجرك فردوس ، وتذهب للوحدة والخوف في الصحراء؟!" .

***

وجع المحبة

حـين كانت "ماريـا" تعيد ترتيب حياتهـا ، وترفض عرض الحب من ابن خالتها ، وترفض معه فرصة العيش في إيطاليا بلدها الأصليّ لم تكُنْ تعرفُ أنها سوف تتجرَّع الألم عـلى مهل ، بل لم تكن تتخيَّـل يوماً أن تتزوج من رجل يجعـل من تعاسـتها والتنكيل بها مهمة سـوف يجتاز بها إلى الخلود ، هي لم تكن متحمسة للزواج منه بعد أن انتهت من دراسـتها الجامعية، وقفت أمام أمها التـي كانت تقنعها بالزواج منه وأخبرتها أنها لا تريد أن تتـزوج من "مايـكل" ، رُبَّما لأنَّها لم تكـن قد دقَّ قلبَها يوماً ، لم تتوقف طويلاً أمام فكرة الزواج من أجل الزواج فقط دونما حب يخطفها أوعشـق يُذيب كل مقاومتها، "مايـكل" كان ابنَ عائلة كبـيرة في مدينة ملوي ، عائلة عُرفت بتجارتها الواسعة منذ عشرات السنين ، بل وصل ثراؤها أنها تمتلك نصف ملوي كما أخبرتها أمُّها ، هي لم يكـن يهمُّها أن يمتلك زوجُها نصف ملوي أو حتى المنيا

كلها ، لكنَّها أيضاً لم يكن لديها حبيبٌ ترفض من أجله ، لم يخفق قلبُها للحب ، كأنَّما قُدَّ من صخر ، رغم الحرية التي كانت تتمتع بها على غير عادة الفتيات اللاتي يتربَّينَ في الجنوب ، إلا أنها لم تعشق ، لم تجد من يستحق معاناة الدفاع عن حبه ، تجربة "فردوس" منذ صغرهما أفزعتها من الحب ، شعرتْ أن طريق العشق مقترن بالآلام ، انتهى الأمرُ بماريا أن تتزوج ب "مايكل فَرُوس" صاحب محلاَّت الصاغة الكثيرة في ملوي ، أسَّس لها شقة جميلة تليق بأميرة ، فرحت بالشقة التي ستوفر لها الاستقلال عن بيت أبيها ، كانت متحمسة فقط لأن يكون لها مملكة خاصة ، كعادة الفتيات ، لكن بعد مُضيّ أسبوع واحد من الزواج بدأت حياة مختلفة لم تتصورها، إنها المأساة مُجسَّدة ، زوجُها كانت تسيطر عليه أمَّه تماماً ، تتحكَّم في كل تصرف وفي كل تفصيلة، وجدت "ماريا" نفسَها لا تستطيع حتى أن تختار أقلَّ شئ في بيتها بداية من وجبة الغداء وانتهاءً بموعد ذهابها عند أمها ، بذلت في سبيل إقامة سلام مع "مايكل" وأمه كلَّ ما يمكن من جهد ، لكن السبل تقطَّعتْ بها ، صارت الحياة مع "مايكل" تعاسة مستمرة ، سارت في كل السبل التي

تُمكِّنهـا أن تعيش معه في سـعادة ، وخاصة أنها كانت فتاة منفتحـة الفكر ، غربية الثقافـة ، فلم تكُنْ لديها عُقَدُ الشرقيات، لكن لا فائدة .

تعرفـت "ماريا" على "مايكل" في الكنيسـة ، صارت مقابلاتهما حتمية منذ أن اشتركت في تدريس البرمجيات ومادة الحاسب الآلي في مدرسة الأحد في الكنيسة ، حيث كان يدرس هو مادة اللغة الفرنسية ، أحبَّها "مايكل" حُبَّاً صامتـاً فترات طويلة ، لأنها كانت تتعامل معه بحيادية لا تشـجع على أن يصارحَها بمشـاعره ، طـلاب الثانوي الذين تدرس لهم لاحظوا شـغف "مسـيو مايكل" على "مس ماريا" ، وبـدأ الهمس الذي يبارك هذه العلاقة ، فماريا نالت حب الجميع بحسن معاملتها لكل من يأتي للكنيسة ، لا تفرق في المعاملة بين صغير أو كبير، أو غني أو فقير ، كانت الابتسامة المتسامحة أبرزَ ما يميزها عن غيرها .

في النهايـة تقدم لها "مايكل" بعـد أن قابل والديها حين ذهـب إليهما ، فاجأها ذات أحـدٍ بوصفه لبيتهم وشـارعهم وقريتهم ، تعجبت مـن أين عرف كل هذه

التفاصيل ، فأخبرها فخــوراً أنه ذهب؛ ليقابل المهندس "هــارفي" ويخطبها منه ، ارتبكت قليــلاً ، لكنها قالت : "إذا لم أحب ، فعلي الأقل أتزوج رجلاً جيداً" ، وقد كان "مايكل" ذلك الرجل.

كانت العلاقة بينهما شــائكة ، هــي عقلانية تتعامل بعقلهــا في كل تفاصيل الحيــاة ، وليس للقلب مكان في حياتها ، تزوجته وهي خالية البال تماماً ، لم تضعْ لنفسها أيَّ تصورات مســبقة، قــررت أن تحافــظ على شرفه ، وترعاه هو وأمه وأخوته ، في مقابل أن يحترمَ إنسانيتها، ولا يســئَ إليها بأي شكل ، لكنَّ هيمنة الأم على ابنها لم تُعطِها فرصة لأن تحبَّه.

الحياة ســارتْ بينهــما رتيبة ، لا جديــدَ فيها ، لكن الزوج العاشــق لم يجد لهفة العشــق في أي تصرف من تصرفات زوجته، هــي لم تقصر في حقه في أي أمر ، كل شــئ مرتب ومنسق ، تحقق له ما يريد قبل أن يطلبه ، لكنها لا تستطيع أن تنطق كلمة "أحبك" في كل كلامها، كانــت تبرِّر ذلك بأنها عقلانية ولا تعرف كيف تعبر عن مشاعرها ، وأنها تعبر بالأفعال والتفاصيل .

كان يشتكي للكاهن الذي يأتي إلى منزلهما كلَّ أسبوع لتلقِّـي الاعـتراف ، وحـين كان ينفرد بهـا الكاهن كان يسألها عن مشـاعرها تجاه زوجها ، فتخبره أنها تعامله كـما ينبغي لامرأة حرة أن تعامل زوجها ، لكنها لا تحبه ولا تحـب غيره ، لكنها أيضـاً كانت تخبره عن أمه التي تتفنَّن في التنكيل بها ، والكاهنُ بدوره يطمئن "مايكل" ويطالبـه بالصـبر عليهـا ، فالصبرُ عـلى الزوجة طريق الفـردوس ، لكنه أيضاً يُوصِيه أن يخفف قبضة أمه على حياتهـما ، لكن "مايكل" لا يعرف بما يُجيبه ، فهو الابن الأكبر لهذه الأم ولا يستطيع أن يُغضبها.

أم "مايكل" ترغب في أن يُنجب ابنُها ، وتحمل أبناءه قبل أن توافيها المنيَّة ، لكن "مايكل" و "ماريا" لا يعرفان بما يُجيبان العجوز التي تحلم بأحفاد يُسـعدون أيامها، كان "مايـكل" يحاول أن يمتصَّ غضـب أمه ، ويذهبَ بزوجته للطبيـب ، لكن الطبيب يخبره أنها مسـتعدة تمامًا للحمل ، وكذلك هو ، لكن لا يوجد بينهما توافق ، فهو قادرٌ على أن يُنجب من غيرها وكذلك هي تستطيع أن تنجـب من غيره ، رضيتْ هي بما قسَـم الرب ، لكن

هــو لا يرضى ولا يقنع ، صار إنجاب "ماريا" هو شــغل "مايكل" الشاغل .

وصــار التنكيلُ بها وســيلتَه في تعويض نفسِــه عن الإنجاب وإرضاءً لأمه ، كانت تتلقى الإساءات والإهانات بصــبر وجلــد ، لكن لا تعــرف إلى متى تتحمــل ، صار الذهــاب للكنيســة بعد العمل عــادة يومية ، تمر على الكنيســة في طريقهــا للبيــت ، تدخل لقاعــة المذبح ، تجلس أمام أيقونات المسيح والأم المقدسة والقديسين، تصلي وتشــعل شــمعة وتخرج ، في البدء كانت تســلم على الموجود من الكهنة والرهبان ، ويسأل الجميع عن أخبارها ، لكنها حينما حوَّلت الأمر لعادة يومية ، صارت تُلقي الســلام فقط على مــن يقابلهــا ، ولم يعد يلفت نظرَ أحد دخولهــا للصلاة وخروجها ، وكأنها صارت من مفردات المكان .

كانتْ الأيــام تمر ، ويزداد "مايكل" قســوة ، وتزداد هي حيادية ، لم يعد هناك شــئٌ يثير فضولها أو شغفها أو حتــى كرهها ، كل الأشــياء فقــدتْ طعمها ، فقدت مذاقها ، حتى الألم النفسيّ والبدني صارت تتعامل معه ،

صــارت تمرره على روحها، لم تعد قادرة على التمرد على شئ ، حتى الألم.

ما لم تحسب حسابه أبداً ، ولم يخطر في بالها أن تقع في أتون العشــق وهي متزوجة ، أبداً لم تســمح لقلبها أن يدقَّ بعدمــا حدث مع "فردوس" و"محمود" ، هي ارتاحــت لتلك الحيادية التي وصلت إليها ؛ لأنها رفعت عن كاهلها مواجعَ قصص العشق الأولى ، لذا لم تجد في تلــك الحالة من الحيادية أمــراً مُقلقاً ، لكن أن تذهب ذات صبــاح باكر ، وبرْدُ يناير يضرب أطرافها ، والكوفية الســوداء التي تلفُّ بها عنقها لا تمنع قرصات البرد عن مهاجمتهــا ، أن تدخل الشركة لتجد شــابًا يلفت نظرَها لأول وهلــة ؟! وقفت دقائق لا تعرف من هذا الشــاب الذي يجلس على مكتب جديد في الشركة؟

الواقــفُ أمامها لفت نظرَه حالة التوهان التي تلفُّها، تعجَّــب من هــذه المرأة التي لا يعرف مــن هي ، فلم يُعرِّفه بها أحد ، ولم يتدخل أحدٌ من الحاضرين ليقدمه إليها أو يقدمها إليه.

انتبهــتْ لوقوفها هكــذا أمام الرجــل ، خجلتْ من

نظــرات الزملاء والرجــل الذي فوجئ بتعبــير وجهها ، اتَّجهــتْ إلى مكتبهــا دون أن تقول كلمــة ، لكنَّ الأيام والليالي والشهور والسنين التي قضتها في حالة صراع بين روحها والعالم قفزت جميعها في ذاكرتها.

تأخــرت في العمل ، ولم تخرج مــن مكتبها تقريباً إلا بعد انتهاء اليوم ، حين دخل عليها العم "رجب" العامل، ليخبرها أن الشركة سوف تغلق وأن الجميع قد انصرف.

في اليوم التالي عرفت أنه التحق حديثاً بالشـــــركة، وأنه ســوف يتولى مهمة التســويق الإلكــتروني للشركة وبرامجها ، ظلت تتجنَّبه لشهور ، حتى أجبرتها الظروف عــلى التعامل معه ، حينما عقــد اتفاقاً مع شركة كبرى في مجال الإعــلام وتريد تصميم موقع إلكتروني مختلف ومغاير ، ساعتها اضطرَّ للجلوس معها وشرح المواصفات الفنية التي تريدها الشركة.

كان الأمــرُ فرصة لأن يفهم لماذا تتجنبه هذه الزميلة التي يســمع عنها تفاصيل طوال الوقت من الزملاء ، ما بين متحمس لها ولأخلاقهــا ومهنيتها وتميزها كمبرمجة وما بين حاقــد عليهــا ، ومنتقد لتفاصيلهــا وتصرفاتها

ويعتبرها متعالية ومغرورة.

حـين جلس أمامهـا في غرفة الاجتماعـات كان لديه فضول كبير أن يكتشـف تلك الشـخصية الإشـكالية ، جلسـت هي في حذر وترقب ، وقررت أن تسـتمع إليه دون أن تبدُرَ منها بادرة تكشف عن النيران التي تشتعل داخلها ، تحدَّثا طويلاً ، وصارتْ لحظات العمل تجمعُهم تقريباً كل يوم .

كانت الأيام تمضي ، وثمة شـئ يبنـي داخل "ماريا" و"إيهاب المنجي" ، ربما تكون قد وجدت فيه التعويضَ الإلهي عن قسـوة "مايكل" معهـا الذي يحملها ذنباً لا علاقة لها به، صار الجلوس مع "إيهاب" في الشـغل هو أجمـل أمنياتها التي تتحقق يوميـاً، لم يتحدث كلاهُما أبدًا عن مشاعرَ كانت تتشكل على مهل، كلاهما يعرف أن هـذا الحبَّ الذي يتشـكل هـو المسـتحيل ذاته ، يقـف الزوج الغائب دائماً عـن فكر "ماريا" حائلاً دون المصارحة، لكن "إيهاب" كان يشـعل روحها وجسدها بحنانـه الدفاق ، وعطره الـذي يأخـذها بعيدًا عن العالم ، ووسامته التي تجسد لها الحبيب الذي لم تعرفه

يومـاً ، كانت تهرب منه وتندفـع إليه ، لا تعرف كيف تحسم أمرها ، حتى وجدتْ نفسها تعترف للأب الاعترافيّ لها بحقيقة مشاعرها نحو "إيهاب".

فزع الأب وذكَّرها بما يقوله "يسـوع" ، وحذَّرها أنَّها تبتعد عن مملكة السماء وتذهب بقدميها إلى الخطيئة، لكنهـا كانـت تبكي بين يديـه وتخبره أنها لا تسـتطيع مقاومة مشاعرها فماذا تفعل؟ .

***

قديس روحها

لاحَ في فكــر "فـردوس" قرارُ الرهبنة ، بدأت الطريق مســتعينة بالأم المباركة وقديس روحها "مارجرجس" ، منذ طفولتها وصورة الراهبات تثير دهشــتها وفضولها، منــذ أن كانت تذهب مــع أبيها إلى ديــر الراهبات في الجبل، وهي ترســم لهُنَّ صورة ملائكــة بأجنحةٍ بيضاءَ تجسَّــدتْ على الأرض ، كانت تراهُــنَّ في مولد العذراء وقــد وقفنَ يطبطــبنَ على أطفال مذعــورة من الزحام والصخب، يقفن في شموخ وتسامح يَهَبْنَ البركاتِ للنساء الريفيــات الراغبات في بركة يســوع ، يســقينَ العجائز الــلاتي فرهدهُنَّ الحــر والعطش ، وقد جــئنَ لأم النور تباركهن ، كانــت الراهبات تدُرْنَ بين الصغار والعجائز، يداوين الأرواح بالابتســامات الحانيــة ، ويهبْنَ الصغار الحلوى والحمص والفول الســوداني ، ولا ينســينَ قطع الملبن الطرية على الأسنان الخربة للعجائز القادمات من القرى النائية.

أضواءُ السـيارة التي فزَّعت أرنباً في البراري ، لم ترَها امرأة تجلس في حجرة مظلمة تدعو "يسـوع" أن يستر عرض ابنتها في الغربة ، ورجل يتكوَّرعلى جسـده بجوار سـخونة الفرن يسـمع نهنهات الأم المكلومـة في ابنتها ولا يعلق ، شـهقات المرأة التي ارتفعت وهي تدعو أم المخلـص أن يعيـد لها ابنتها ذكَّـرَه بتفاصيل حياته مع المـرأة ، وفي ذات اللحظة التي يسـتعيد فيها الخواجة "حنا" تفاصيـل حياته مع "دميانـة" كانت "فردوس" تعيد تركيب مشـاهد حياتها قبل أن تتوقف السـيارة أمام باب الدير، كانت الشـمس قد غابت منذ سـاعة أو يزيـد ، والأضواء القادمة من الديـر لا تكفي لتبدِّد وَحْشـة المكان، نزل معها القسُّ وأمرَ السـائق أن ينزل أيضاً ، فطريقُ العودة سـيطول وخاصة أنهما سيعودان بعد قليل.

كانت الراهبات يتحضرن لصلاة المسـاء ، والرئيسـة "تماف ميريني" قد دخلت قلايتها منذ دقائق ، أسرعت إليها إحدى الراهبات ؛ لتخبرَها أن القس قد حضر ومعه امرأة.

ارتدت الرئيســة ملابسها الرسمية وخرجت ؛ لترحِّبَ بالضيــوف ، تحدث إليها القــس طويلاً عن "فردوس" ، وسرَد لها تاريخها وصراعها مع الحياة ، كانت "فردوس" في تلك اللحظــة تجول بعينيها في القاعــة الكبيرة التي تلفُّ جدرانَها صورُ القديسين والقديسات ، وقد أخذتها الصــور تمامــاً عما يدور مــن حديث بــين القس والأم الرئيسة، وقعت عيناها على قديس روحها "مارجرجس"، فهمست له ، ودعته أن يرافقها في رحلتها الجديدة.

انتهى القسُّ من حديثه مع "تيماف ميريني" وتناول بعــض الطعام هو والســائق ، ثم ودَّعهُــنَّ ، واتجه إلى الســيارة ، أسرعت إليه "فردوس" تودعه ، وتقبل يده ، وتوصيه أن يطمئن أمها وأباها.

جلست إليها "تيماف ميريني" وتحدثت معها طويلاً، ثــم شرحت لها قوانين الدير ، و حددت لها مهامَّها التي ستُوكَل لها، وقلايتها الخاصة ، ذهبت "فردوس" لتصلي صلوات المســاء، ثم تســتعدَّ للنوم ، لأن حياة الراهبة تبدأ من الثالثة صباحاً .

وفى أثنــاء نومهــا ، فوجئت بأحد يُربِّــت على كتفها

وينادِيها باسمها ثلاث مرات متتالية ، انتبهت "فردوس" من نومها ، لتجد شـابة جميلة مرتدية ثوباً لونه أخضر فاتـح يشـبه السـارى الهنـدى وأطرافه مـن القصب والفصوصُ اللامعة تزينه ، تضَعُ على رأسها طرحة بلون السـحاب الأبيض ، ينسـدل شعرُها الأسـود من أسفل الطرحـة ، عيونهـا العميقة كأنها تحتضنهـا، ترتدي في قدميها الصغيرتين حذاءً به سيور ذهبية تبدأ من الإصبع الكبير ، وتنتهى إلى السـاق ، أفاقت "فردوس" ، وسألت الشابة الجميلة : "من أنت؟!" ...

قالـت لها الشـابة : "أنا دميانة جئـتُ ، أرحب بك في الدير ، وأخبركِ أنني سـأحميكِ وأحيطكِ برعايتي فلا تخافي ولا تهلعي من أي شئ" .

اطمأنَّـتْ "فـردوس" بعد حديـث الجميلة صاحبة الديـر ، وقبَّلـتْ رأسَـها ، انفتحت طاقة مـن الضياء ، غادرت القديسة من خلالها ، بعد أن ودَّعت "فردوس" بابتسامة وادعة تحمل الكثير من الطمأنينة.

نورُ الصبح بدأ يلوح ، فدبَّت الحياة في الدير، خرجت الراهبات من قلاياتهن ، وشاركن جميعًا في تسبيحة صلاة

الصبح ، بلحن "قوموا يا بنى النور لنسبح ربَّ الكون" ، وانتهت التسـبيحة بإقامة صلاة القداس ، كانت الثامنة تدق حين وقفت "تماف ميريني" بين الراهبات تعرفهن بالأخت الجديدة "فردوس" ، ووصفتها بكلماتٍ طيبة ، ثم دفعت إليها بكتاب "بستان الرهبان" لتقرأ منه على الجميع قبل الاتجاه إلى قاعة الطعام لتناول الإفطار.

توقفت "فردوس" طويلاً ، وهي تقرأ تجارب الرهبان الأوائـل وكيفيـة مواجهتهـم للشـهوات والمحاربـات الشـيطانية، كانـت شـخصية القديسـة "دميانة" من أقرب القديسـات إلى قلبها ، جلست الراهبات للطعام، وبعـد الانتهاء قامـت كل راهبة إلى مـا كُلفت به من عمـل ، وعـادة تكون الأعمال متنوعة مـا بين الخياطة أو الزراعـة ، أوالنجارة أو المشـغولات اليدوية أو عمل أيقونات الكنائس وستر الهياكل والسجاجيد التي ينسج عليها صور القديسين أو عمل بعض أنواع الأطعمة التي يمكـن أن يتمَّ بيعُها مثل عمل المربات والمخللات ، هذا بالإضافـة إلى الأعـمال الخاصَّة بالدير نفسـه ، فهناك الراهبة المسـئولة عـن البوابة ، والأخـرى عن المطبخ

والمائــدة وهى التــى تقوم بعمل الأطعمــة والوجبات للراهبات ، وهناك من تعتنى بنظافة الدير والغرف.

وهناك فريقٌ من الراهبات مُكلف ببيع هذه المنتجات في الأســواق القريبة أحيانــاً أو بيعها للكنائس الأخرى ، ويُخصَّــصُ جزءٌ من هذه المنتجــات لتوزعها على فقراء الأبراشية المجاورة ويذهب جزء أيضاً إلى البطرياركية في العباسية والإسكندرية.

حدثتها "تماف ميريني" عن مبدأ العمل فى الرهبنة ، حتى لا ينشــغل الفكر بأفكار أخرى غير الله ، فعادة ما يصاحب هذه الأعمال تلاوة المزامير أو الصلاة السهمية وهــى صــلاة معروفة قصيرة جــداً ، عبــارة عن جملة واحدة ترددها الراهبات وهن يعملن "يا يسوع المسيح ارحمنــى أنا الخاطئ" ، عادة مــا تتلى ألف مرة أو أكثر حســب ما يحدده أب الاعتراف لــكل راهبة منهن على حــدة ، وذلك لتقديس الفكر والتركيــز على عبادة الله فقط .

على مائدة الغداء راقبتها الراهبات في حذر وتلصص، حين ترفــع عينيهــا لتواجههن كن يبتســمن لها ، فترد

الابتسامة والأم الرئيسة تباركهن جميعاً ، سألتها "تماف ميريني" عــن العمل الذي يمكــن أن تؤديه ، فالجميع لا بــدَّ أن يعمل ، فقالــت لها أنها تربَّــتْ في قرية وأن الزراعة هي أنســبُ عمل يمكن أن تنجحَ فيه ، فكلفت بالزراعة ، حيث يضم الدير مساحة كبيرة من الأرض يتمُّ زراعتُها بمحاصيلَ تُسهم في إطعام الدير ، مثل الملوخية والخــضروات والخيار والطماطم وبعــض الفاكهة مثل البطيخ والشمام .

وبعد الانتهــاء من العمل تجتمع الراهبات إلى صلاة "المجمــع" وهي صلاة تأتي عقب الغــداء مباشرة ، وفي الليــل يؤدين أكثر من صــلاة ، حتى منتصف الليل ، ثم يدرســن جزءاً مــن الكتاب المقدس ، وبذلك يتشــاركن في كل شــئ ، من العمل للطعــام للصلوات ، ثم يذهبن للخلــوة ، ويُقِمْنَ صلــواتٍ خاصة تختلــف من راهبةٍ لأخرى حسب طبيعة عملها المكلفة به فى الدير.

أمرتها "تماف" أن تقصَّ شعرها ؛ لأنه لا مكان للزينة داخل أســوار الدير، وأخبرتها أنهــا تدخل هنا ، لتكون في علاقــة تعبدية مع الله ، لذلك لابُــدَّ أن تتخلص من

كل ما يُلهيها عن ذلك وأول شيء هو شــعرها ، وأخبرتها أنها تغاضَتْ عــن تجاربها العاطفية قبل دخول الدير ، رغــم أن عدم الدخول في تجربة عاطفية شرط أســاسيّ مــن شروط الدخول للدير ، وأن "تماف" تجلس مع أب اعتراف الراهبة التي تــأتي للدير ، وذلك حتى تتأكد أن الدخول هنا ليس هروباً من فشــل عاطفى أو حتى لا تكون عُرضة لغواية الشــيطان ، كــما أنها تغاضتْ أيضاً عــن شرط مهم مــن قبولها كراهبــة في الدير ، وهو أن تكــون الفتاة قد تردَّدت أكثرَ مــن مرة على الدير الذى تريد الذهاب إليه ، لتقرر إذا ما كانت تستطيع العيش فيــه أم لا ، والقبول بهــذه الحياة أم لا ، ومن تصمد فى فترة الاختبار ، والتى قد تتجاوز خمس ســنوات، وعادة لا تقل عن ثلاث ســنوات تمر فيهــا باختبارات فى غاية الصعوبــة منها غســل الملابس وتنظيــف دورات المياه والتى فى بعض الأحيان تتعمد الأم الرئيسة عدم نظافتها بشــكل معين، حتى تمتحن قدرة تحمل طالبة الرهبنة، ومع ذلك حينما أحضرها القس المُبجَّل قبلت بها مباشرة رغم أنها خالفت كل قوانين الدير، فهي متزوجة ، ولديها تجارب عاطفية مرفوضة من الشــعب المســيحيّ كله ،

فقد وقعت في غرام العدو.

استمعت "فردوس" لكل كلام الأم الرئيسة دونما تعليق، وقد شعرتْ بنغزة في القلب حين ذكرت حبيبها بالعدو ، فهو حتماً لم يكن عدواً ، بل كان البهجة الحقيقية في حياتها التعسة ، ولو عاد الزمن مرة أخرى ، فلن تعشقَ غيره ، بل ربما تمتلك الشجاعة الكافية لأن تدافع عن هذا العشق ، وتقف في وجه الكنيسة وترحل معه في مكان آخر يتقبل علاقتهما ، حين أخرجها صوت الرئيسة من تخيلاتها ، ردَّتْ عليها بهدوء وروية، وأخبرتها أنها مستعدة لكل الاختبارات اللازمة لتثبت لها أنها لم تأتِ إلى هنا هروباً من قلبها أو من زوجها، وإنما جاءت لأنها تلقَّتْ نداءات مقدسة من"يسوع" وأمه المباركة و"مارجرجس" قديس روحها.

ردَّدت الأم الرئيسة دعواتها : "اللهم اغفر لى إننى الخاطئة، لأنى لا أستطيع أن أرفع عينىّ إليك ؛ لأنى أخجل من كثرة آثامى، اللهم لا تحسب علىّ آثامى ، بل اصنع معى رحمة فى ملكوتك، اللهم إنى أتضرَّع إليك وأسألك من أجل نفسى وجسدى البائسين" ، فردَّت "فردوس"

بحزن شفيف : "آمين!..."

تركتها لعملها ، وذهبت لترى بقية الراهبات ، كانت صادقة تمامًا ، وهي تخبر " تماف ميريني" أنها مستعدة لـكل الاختبارات ، تُرَى هل كانـت تكفر عن ذنوبها في حـق أسرتهـا وزوجهـا أم ذنوبها في حـق روحها ؟ من الـذي ظُلِمَ في هذه المعادلـة الصعبة ؟ هل ظلمتهم أم ظلموها ؟ وهل اختارت هي من تحب ؟ وهل العشـق يأتي بقرار؟.

عاشـتْ الحيـاة في الدير كما ينبغـي لراهبة جاءت تغسل روحها في مياهه المقدسة .

كان الديـر فرصـة طيبة لتحرير روحها من شـغفها بالدنيـا ربمـا، وربمـا كان جسراً لتخطي عتبات عشـق ملكت عليهـا حياتها، لدرجة أنهـا لم تعطِها فرصة لأن تبـصر بصيص ضوء في هذه الحياة بعيداً عن عشـقها ، كانت تعمل بالنهار ، تعزق الزرع ، وتسقيه ، ثم تجلس تراقب عمل يديها في سعادة ورضا، وفي الليل تجلس في قلايتها تصلي وتدعو يسوع ابن المقدسة مريم أن يطهر روحها من الحروب التي يشـنُّها ضدها عزازيل ، كانت

تهمس : " يا يسوع إنني أنفذ إرادتك ، لترشدنى رحمتك أيها الرب الإله ، اغفر لى خطاياى، واستر آثامى ، نجنى من غضبك ، ماذا أقول حين مثولى بين يديك؟! وبما أتزكى حين تحاكمنى؟ يا يسوع المسيح دبرنى واسترنى من أهوال لجة الشيطان ، ضع سلامك واسمك القدوس علىّ أيها الرب الساكن فى السماوات ، لتدركنى رحمتك وتسترنى، لا تسلمنى ليد العدو ، إنى ألقيتُ كل اهتمامى عليك أيها المسيح ابن الله فلا تتركنى عنك ، إذا ملتُ إلى الشر لا تتركنى ولا تدَعْنى أسيرُ حسب شهواتى الرديئة، لا تـدَعْ تبكيتى ليوم دينونتك العظيم، لا تقضِ علىّ كاستحقاق خطاياى ، استر فضيحة عُريى أمام منبرك المرهوب ، طهرنى كى لا يوجد دنسٌ فى نفسى بين يديك".

مرَّت الأيام والشهور ، وقد أجادتْ "فردوس" وضع حد وهميّ بينها وبين راهبات الدير ، لم تكن مستعدة أن تدخل في صراعاتٍ خفية كانت تراقبها تحدث بين الراهبات ، تراقب في صمت صراعات مكتومة تتم من وراء عيون "تماف ميريني"، لا تعرف عما تتصارع الراهبات إذا كنَّ لن يأخذن من الدنيا سوى لقمة

طاهــرة بعيداً عن كَــدَر الدنيا ، ونَوْمة بعد تســبيحة، وحُلماً بمجاورة "يسوع" في الفردوس؟!

***

المنطقة الآمنة

ظلَّــتْ "فردوس" في المنطقــة الآمنة دون صراعات ، حتى قرَّرتْ الأم الرئيسة أن ترسلها إلى الأبراشية أحياناً أو سوق المركز لبيع ما تصنع أيدي الراهبات من سجاجيدَ ومشغولاتٍ أحياناً أخرى ، ساعتها بدأت الحرب المكتومة ضدَّها ، وساءت معاملة الراهبات لها ، رغم أنها لم تكن ترى في خروجها من الدير أيَّ مكاســبَ تستحق الحسد والحقد عليها ، إلا أن الراهبات بدأن رحلة المكيدة.

هي لا تفهم علام الصراع وكلهن مظلوماتٍ منقوصاتِ الحقوق ، فإذا كانت الكنيسة فتحت الباب أمام النساء من أجل الانخراط في سِــلك الرهبنة ، فإنها فعلت ذلك فقــط لمن تريــد أن تتفرغ للعبــادة ، وتحفظ عذريتها للمسيح في مكان لا يشغلها بمباهج الدنيا ، لكن هذا لا يرتــب لها أي حقوق ولا يمنحها أي صلاحيات مثل التي يحصل عليها الرجال الذين تتدرج رتبهم الكنســية من

الأســقف إلي الشماس ، الكنيســة تتعامل مع الراهبات علي أنهن في النهاية نساء ، ولا تستطيع الراهبة الخدمة في الأسرار الكنســية ولا تؤدي أي وظيفة من الوظائف المقصــورة علي الرجال ، فتعيــش الراهبات دون درجة كهنوتيــة ، بل لا يُســمَح لهن برئاســة القــداس ، فيوم القداس يحضر قسٌ للدير ، ليرأس الصلاة ، فمهما بلغت مكانة الأم الرئيسة لا يُسمَح لها أن تقيمه.

بل سيصل الأمر في يوم من الأيام أن يتولى رئاسة الدير "الأنبا بشوي" ، وسيكون شديد القسوة مع الراهبات في الدير، حتى أنهن سيقمن بحركة تمرد ضده ويطالبن بأن تتــولى قيادة الديرعلى الأقل إدارياً أمٌّ رئيســة، وحاولنَ الذهــاب إلى البطريركيــة في العباســية لمقابلــة البابا ، لكنَّهــن لم يفلحن في ذلك؛ لأن البابا كان مريضاً ويتلقى علاجه بالخارج ، وظلَّ "الأنبا بشوي" رئيساً على الدير.

كانت "فردوس" تتلقى زيارة من أمها وأبيها مرة كل شــهرين ، رغم أنه من حق الراهبات اســتقبال الزيارة من الأهل مرة كل شــهر ، لكنَّ بُعْدَ المسافة في الجنوب جعلت زيارة أمها وأبيها تقتصر على مرةٍ كل شــهرين ،

أو ثلاثة أشهر في بعض الأحيان .

كل هــذا لم تعتبره "فردوس" إشــكالياتٍ تســتحق القلــق ، فالحســد والمكائد تعوَّدت عليهــا حين كانت تعمل مبرمجة في الشركة ، لكن ما لم تحســب له حساباً أن تختارَها الراهبة الأكبر ســنًا والأكثر ســلطة في الدير والمقربة من الأم الرئيسة ، لحياة سرية وضعتها في حالة مــن الرعب الذي ألجمها لوقــت طويل، قبل أن تمتلك القدرة على أن تقول للراهبة لا .

في ليلةٍ شديدةِ البرودة كانت "فردوس" تستعد للنوم بعــد أداء صلواتها الليلية ، ســمعت طرقــاً خفيفاً على الباب، اعتقــدتْ أن "تماف ميريني" جــاءت ؛ لتوبِّخها على الشــجار الذي تمَّ بينها وبــين الراهبات في المطبخ، وهي تســاعدُهُنَّ في إعداد الطعام، قرَّرت "فردوس" أن تحل محل الأخت "مريام" المكلفة بالمساعدة في إعداد الطعام ، كانت "مريام" متوعكة وتلزم قلايتها، فتطوَّعت "فردوس" للمســاعدة ، كانت الراهبتــان اللتان تعدان الطعام تتحدثان معها عن المدينة وعن عملها كمهندسة كمبيوتــر، فكانت تكتفي بالموافقة على المعلومات التي

كُنَّ يسألنها عن صحتها ، كلما سألنها عن أمر تهُزُّ رأسَها ولا تزيــد عن قــول : صحيح أو نعم ، عــلى كل جملة تخرج منهما ، لا تعرف كيف بدأ الأمر، لكن فجأة بدأت الراهبتان في توبيخها واتهامها بأنها تتعالى عليهما .

قامت متباطئــة لتفتح الباب ، وعقلهــا يعمل بكدّ؛ لتجهِّــز دفاعاتهــا أمــام الأم الرئيســة ، وجدت الأخت "فيبــي" أمامهــا ، دفعتهــا للداخل في سرعــة وحذر ، وتلفتت من حولها ؛ لتتأكد ألا أحد من الراهبات يراها، رحبت بها "فردوس" ، فهمســتْ لها ، وطلبتْ منها أن تخفض صوتها.

جلســت بجانبها على السرير الصغــير المصنوع من جريد النخل والذي يتوسط القلاية ، وحدثتها كيف أنها تراقبها منذ مجيئها للدير ، وكيف أنها تراها جديرة بحب "يســوع" ، وتقدر تماماً تعاملها بأخلاقيةٍ مع الراهبات اللاتي يتعمَّدن استفزازها.

ثم بدأت تســألها عــن حياتها الزوجيــة قبل دخول الدير، وعــن علاقاتها مع الرجــال ، فوجئت "فردوس" بالأخــت الراهبة التــي تريد أن تتحــدث عن علاقات

عاطفية وجنسـية ، حاولت أن تتهرَّب من الإجابة على تساؤلاتها ، لكن "فيبي" تُصِرُّ أن تعودَ للموضوع ، تريد منهـا أن تصفَ كيف كان يأتيهـا زوجُها؟ وكيف كانت تشـعر حينما يُدخِلُ شـيئه في جسـدها ؟! وهل كانت تصل معه إلى لحظات الأورجازم ، كيف لراهبة أن تعرف لحظات الأورجازم ؟! هكذا فكرت "فردوس".

خجلت "فردوس" وشعرت بارتباك شديد ورَجَتْها أن تتركهـا في حالها ، هي لم تشـعر يوماً مـع زوجها بتلك الرعشـة التـي تتكلم عنها الراهبة ، لم تشـعُرْ يومًا مع "برسوم" برعشة أو غيره ، بل كانت ترقد له دون رغبة، وتظل تتحمَّل ثقل جسـده الذي يعـود خائباً دون أن تشـعله رائحتها العطرة أو تحركه التأوهات التي تصدر عنهـا ، يتركها ويقوم ، وتجلس هـي تتصور ماذا لو أن "محمود" هو الذي يرقد بجانبها الآن، فتبكي على عشق قضى ، وحياة انتهت ، لكنها لا تستطيع أن تحكي للراهبة عما كان يحدث بينها وبينه.

تجنبت "فردوس" أن تحكي عن تلك العلاقة الخائبة بينها وبين زوجها ، لم تخبرها عن قصته مع أخيه ، كانت

فقط تحكي لها حكايا عن العشق والشغف والفرق بينه وبين الحب ، وأن أعلى درجات العشــق هو الشــغف ، وأنها لم تشــعر بهذا الشغف سوى مع "محمود" الذي كانت تمثل لمســة من يده حين يسلم عليها كل ساعات الجنــس التي يمكن أن يقضيَها رجل مــع امرأة ، كانت الراهبة تصل إلى حالة النشوة ، تُدهَشُ "فردوس" التي لا تفهم كيف لراهبة عجوز دخلت الدير دون أن تعرف طعم الشــغف أو رائحة الجســد أن تشــتعل لمجرد أن تســمع حكايات العشــق؟ لكنها رجتهــا أن تتركها الآن لأنها مُرهقة ولا تســتطيع أن تفتــحَ عينيها من النوم ، تركتها "فيبي"، لكنها أخبرتها أنها سوف تحضر لها الليلة القادمة ، وأنها يجب أن تحفظ سرَّهما معاً .

في اليوم التالي وعلى مائدة الإفطار نظرت إلى الراهبة نظرة متواطئة ، فقد شــعرت بنشــوة وهــي تحكي لها حكايات عمرهــا، وكانت هذه النظــرة المتواطئة وعداً جديــداً بمتعة تنتظرها "فيبي" التــي ربَّتتْ على كتفها وهي تغادر مائدة الطعام ، ممَّا دفع بقية الراهبات أن يتبادلن النظرات ، فالأخت "فيبي" مقربة من الرئيسة ،

بل هي عينها وأذنها على الراهبات ، وكل راهبة تتمنَّى أن تبتسم لها "فيبي" أو تُربِّت على كتفها بمودة .

صارَ لدى الراهبات سببٌ جديدٌ للحقد على "فردوس"، وصِرْنَ يتفنَّــنَ في تكديرهــا ، لكنها كانت تتســامح مع ضعفهن، وترى أن "يسوع" لم يلمس قلوبهن ، حتى لو كُنَّ قد أنفقن السنوات في ذكره وعبادته.

***

فيبي

مرَّت ســنون طويلة منذ أن دخلت الدير لأول مرة ، ربمــا لا تذكر عددَها ، كان عمرُها واحداً وعشرين عاماً، فتــاة جميلة، كوردة متفجرة بالحياة ، كانت تعيش مع أبيهــا في حي الزمالك، وحــين توفيت أمها فكر أبوها في الــزواج ، ظل يبحــث كثيراً فيمن حوله من نســاء ، في الكنيســة أو العمل ، وحين قابــل "مرفت نخلة" زميلة أخته ، وقد حضرت إلى نادي الجزيرة لتراه بعد أن رتبت أخته لهذا اللقاء.

شــعر الأب بالقبول نحو "مرفــت" ، وقبل أن تقوم فاتحَهــا في الزواج مباشرة ، "مرفت" لم تكن قد تزوجت بعــد ، رغم دخولها منتصف العقــد الرابع ، تم الزواج في حفــل ضيق حضره الأهل والأصدقــاء ، لكن الزوجة الجديــدة لم تتحمل ابنة الزوج، بــدأت المنغصات منذ عودتهــما من شــهر العســل الذي أمضيــاه في أوروبا ،

فرجل الأعمال الثريّ قرر أن يعوض نفسه بعد تنيح ابنة عمه الريفية الطيبة التي لم تكن تجيد الفرح مثلما كان يصفهـا دوماً ، المرأة التـي وقفت بجانبه في رحلة الثراء لم تستطع أن تتعايش مع المستوى الاجتماعيّ للزمالك ، فكانت تفضل ألا تشـارك في المناسبات الاجتماعية التي يقيمها الزوج أو يشـارك فيها ، فعمله في التجارة يحتم عليـه أن يراعي العلاقاتِ الاجتماعية ، ورغم أنَّ الزوجة لم تكن من هـواة الخروج إلى النوادي والسـينمات إلا أن "فيبـي" كانت أقرب إلى أبيها من أمها ، لم ترث عنه فقط زرقة عينيه ولا شعرَه الذهبيّ ، بل ورثتْ عنه حُبَّه للحيـاة والمرح ، كانت ترافقه في رحلاته إلى أوروبا ، كما أنهـا صادقت فتيات الطبقة الراقية التي انتسـب إليها الأب نتيجة لثرائه الكبير وهو الريفي ابن جنوب مصر .

لم تتحمل الزوجـة ذلك التقارب بـين زوجها وابنته الوحيدة، فبدأت رحلة العذاب بالنسبة لفيبي .

بدأتْ تكيد لها لدى الأب ، بل كانت تتلصَّص عليها ، وتخـبر أباها بتصرفاتها كلها ، بل تزيد عليها بما لم تفعل البنـت ، وحين وقعت "فيبـي" في غرام ابن عمها الذي

كان يعــادي أباها نتيجة لخلاف حاد على الميراث كانت الزوجة منتظــرة لكل لحظات الضعــف التي يمكن أن تستغلَّها ضد الفتاة .

لم تصمُــدْ الفتاة كثيراً أمام هذه الضغوط النفســية ، فقرَّرت أن ترحل للدير ، وقبلت فورًا في دير القديســة "دميانــة" ، فالبتــول العــذراء التــي لم تتعــدَّ الحادي والعشرين من عمرها قررت أن تهبَ حياتها ليسوع .

الســنون تمُرُّ ، لكن قلبها كان ما يزال مُعلَّقاً بالحياة، فلــم تنسَ سريعاً حياتها المُبهجة في نادي الجزيرة وحي الزمالك ومدرسة "ليســيه الحرية" ، كانت تتلهَّفُ على أخبــار الحياة من الراهبات الــلاتي يلتحقن بالدير، كل راهبة تدخل الدير حديثاً تظل تراقبها عن كثب ، وحين تطمئن أن لديها حياة زاخمة بالمتع قبل الالتحاق بالدير تبــدأ في توطيد علاقتهــا بها ، ويكون الهــدف الرئيس المعلن بالنســبة لها أمام الصديقة الجديدة التي تحاول أن تســتقطبها ، تبدأ جلســات السرد بمجرد أن تطمئنَّ إليهــا "فيبــي" ، كلُّ راهبةٍ جديدةٍ مُرشَّــحة لأن تسردَ عليهــا تفاصيلَ حياتها في الخارج ، علاقاتها بالرجال قبل

أن تلتحــقَ بالدير ، وصــارتْ السَّرديَّــاتُ التي تتمُّ كل ليلة حيواتٍ جديدةً تُضــافُ لفيبي ، وتظل العلاقة بين الراهبــة الجديدة والراهبة الأقــدم في الدير حتى تنفذ كل حكايات الأولى ، ساعتها تبدأ "فيبي" في البحث عن رفقة جديدة .

حكايــا الراهبات كانت تــدور في إطار الحديث عن المشاعر التي عِشْنَها قبل الالتحاق بالدير، لأنهُنَّ غالباً لم يكُنَّ متزوجاتٍ، ولم يعرفْنَ متع الجسد ومباهجه، لكن "فــردوس" أمرُها مختلف ، فكل مَنْ في الدير عرف أنها كانت متزوجة، وأنها لا يحق لها الدخول إلى الدير ، لأنها فقدت شرط البتولية، لكنه البابا سمح لها بالدخول، وقد حرصت هي والأم الرئيســة أن تخفــيَ أمر زواجها عن كل من في الدير ، لكنَّ إحدى الراهبات ســمعتْ القس المُبجَّل الذي أحضرَهــا للدير وهو يتحدث مع "تيماف ميريني" ويخبرها بقصة "فردوس" التي أمرها "يسوع" وأمه المباركة أن تدخل الدير في أكثر من حلم ، وأخبرها كيــف أن البابا رغم اعتراض الآباء المُبجَّلين في الكنيســة سمح لها بالدخول إلى الدير.

كانت الجلسة الأولى مع "فردوس" قادرة على إشعال نيران الوُجْد ليس في روح "فيبي" فقط ، بل في جسدها أيضاً، وصارت الليالي تمــر وحكايات "فردوس" لا تنفد، كان يختلــط الواقع بالخيال في تلــك الحكايا ، حتى أن "فردوس" ذاتها لم تكن تفرق بين ما حدث لها في حياتها قبــل دخولهــا الدير بالفعــل وبين ما تخيلتــه ، صارت صناعة الحكايا والخيالات نيرانَ المدفأة التي تشعل روح المرأتين في الشتاء وفي وحدة الدير وبرودته ، هل كانت "فيبي" فقط التي تحتاج لهذا الحكي؟ أم أن "فردوس" كانت تســتعيد كل حكاياهــا وتفاصيلها الصغيرة حتى تقوم بتثبيت المشهد؟.

"فردوس" اســتمتعتْ باللعبة التي دخلتها في البدء مشفقة على الراهبة العجوز ، وهي تستنطقها عن حياة جاءت للهروب منها ، لكن حينما بدأتْ الحَكْيَ شــعرتْ بســعادة غامــرة تجتاح كيانها ، وبمــرور الليالي أدركت المتعــة ، وأدمنتْها ، فقرَّرتْ أن تطيــل عُمْرَ الحَكْي ، بل تطيــل عمر تلهَّف الراهبة العجــوز على حكاياها حتى لا تشــعرَ بالملل وتبحــثَ عن راهبةٍ جديــدةٍ تفتح لها

صندوق أسرارها الصغير.

ربما كان الجزءُ الأكثرُ دهشة بالنسبة لها حكايا "فردوس" مع المسلمين ، سواء علاقتها بمحمود أو علاقتها بسلوى وبيت الشيخ صالح ، ربما كانت حكاياتها عن "محمود" تدخل في إطار الحديث عن المشاعر ، وعلاقة شغف تمكنت من روحها، لكن حكايات بيت الشيخ "صالح" فكانت بمثابة الأساطير بالنسبة لفيبي .

ما أثار دهشة الراهبة العجوز هو عالمُ التصوف الذي هو أقربُ في روحانياته لفكرة الدير والتفرغ للعبادة وعالم القديسين ، كانت تستمع لها بلهفة ودهشة ، لتتعرف على تلك العلاقة الشائكة بين عائلة الشيخ وعائلة "فردوس" التي بدأت مع وصول جدها المقدس "صبحي" إلى قريتهم ، وكيف وقف بجانبه الشيخ ، وكيف رعى "دميانة" ابنته حتى تزوجت الخواجة "حنا" .

كانت أخبارُ حضرة الذكر هو أكثر ما يشد "فيبي" لحكايات "فردوس" عن بيت الشيخ ، وأثناء حكاياتها لم تكن متأكدة تماماً من هذه التفاصيل التي تحكيها

للراهبــة هــل وقعت بهــذه الدقة أم هو خيــال التي كانت صغيرة ومندهشــة من عالم كان مغلقاً بالنســبة لها لولا أنَّ أباهــا الخواجة "حنا" كان يأخذها ويذهب إلى الحضرة، يجلس هو مع رجال الله كما كان يسميهم الشــيخ ، وتجلس هي في الداخــل مع الصغيرات أحفاد الشيخ وعلى رأسهن "سلوى" زميلتها في المدرسة.

كانــت قصة الخضر الــذي يجتمع مع أوليــاء الله ، ويصــلي بهم في المقعد البحري ، هــي أكثر قصة أثارت الراهبة العجــوز، وجعلتها تبحث ـ في قراءتها عن عالم القديسين والشهداء ـ عن قصصٍ موازية .

وكانت حكاية قاعة الشيخ "عليٍّ" أكثرَ ما أثار دهشتها، والشــيخ "عليٍّ" شيخٌ من أقطاب الصوفية الذين جاؤوا إلى مصرَ من المغرب ، ليســتقرَّ في الصعيد ، وتُحْكَى عنه كراماتٌ ومعجزاتٌ كثيرة ، توفى الشيخُ منذ عقود طويلة ودُفِــنَ في هذه القاعة ، ويعتقد الجميع أنه يســكنها ، وأنه في ليلة الجمعة من كل أســبوع تُضَاءُ القاعة بأنوار سماوية ، ويحضر الأقطاب والأولياء ، ليصلي بهم الخضر عليه السلام ، وتقام الحضرة حتى قبيل الفجر.

كان الشيخُ "صالح" أحدَ رجال الله الذي سكن جنوب مصر وابناً لأحد أقطاب الصوفية الكبار ، جمع بين العلم اللــدنيّ، علم التصوف والروحانية والعلم الشرعي ، فقد درس في الأزهــر الفقــه والحديث والقــراءات ، وحين توفى والــدُه القطب الصوفي عاد من الأزهر ، ليتولى أمر العائلة والحضرة ، كان منزل الشيخ يتوسط المسافة بين الذاهبين لزيارة رجالات الله وأقطاب الصوفية في شمال البلاد: الإمام الحســين والســيدة أم العواجز والطاهرة المطهرة نفيســة العلم والشيخ السيد البدوي وإبراهيم الدســوقي ، وبــين القادمين من الشــمال والمتجهين إلى جنوب مصر حيث الشــيخ القناوي ، صار منزل الشــيخ محطة اســتقبال رجال الله وأصحاب الخطوة ، وصارت حضرة ليلة الجمعة من كل أســبوع مناسبة حية وثابتة لاستقبال ضيف قادم من الشمال إلى الجنوب والعكس .

ورث الشــيخ الكثيرَ من الأطيان والأراضي ، لكنَّ كرمَ ضيافته لرجال الصوفية جعله يفقد عاماً وراء عامٍ جزءاً مــن هذه الأراضي ، ولولا أنَّ أبناءه الثلاثة "عبد القادر" و"عنــتر" و"عبد الرحيــم" كانوا يســاعدونه بأموالهم

القليلة التي يُحصِّلونَها من العمل في الزراعة ما استطاعَ أن يواصل ما يعتبره مشروعَ حياته ودورَه الأهمّ في هذه الحياة.

هذه المعادلة التي امتلكها الشيخ في قلبه بين الباطن والظاهر والحرص على حسن لقاء الله وحب الحياة والارتواء من مباهجها جعل في روحه مُتَّسعاً لكل الكائنات ، فلم يفرق بين البشر، بين مسلم ومسيحي ، كلٌّ وجدَ له مكاناً في روحه، وفي بيته ، وفي كرمه وكرم عائلته ، فكان من الطبيعيّ أن يجدَ المسيحيون لهم مكاناً في قلبه وبيته ، وقد اتخذ منهم الشيخ أصدقاءً وخلان ، وكان الخواجة "حنا" أحدَ هؤلاء الخلاَّن الذين اصطفاهم الشيخ ، وقف بجانبه في كل أزماته وخاصة أزمة ابنته التي عشقت شاباً مُسلماً ، ولولا حكمة الشيخ "صالح" والباش حكيم "يوسف" لانقلب الأمر لحرب معلنة بين العائلات المسلمة والمسيحية ، ولتطوَّرَ الأمرُ لفتنةٍ لا يعلم مداها إلا الله ، لكنْ في بيوت المحبَّة مُتَّسعٌ لكل الصغائر قبل العظائم .

لم يكُنْ الشيخُ فقط من اهتمَّ بقصة "محمود"

و"فــردوس"، فالبيــتُ كلــه اعتبرَ قصة العشــق والألم هــذه تخص الجميع ، ففردوس كانت صديقة لســلوى وطالمــا حــضرت لمنزلهم برفقة أبيهــا في ليالي الحضرة ، وقد أحبَّتها "صباح" والدة "سلوى"، بل اعتبرتها ابنتَها ، وكذلك الجدة "دولت" التي كان لها مصداقية عند نساء القريــة جميعاً ، وقفت في وجــه الثرثارات اللاتي تناولنَ ســيرة الفتاة العاشــقة ، دافعت الحاجة "دولت" جدة "سلوى" عنها ، دافعت عن عفتها ، وذكَّرتْ الجميع بأن الله محبة ، وأنــه يجب علينا أن نغفرَ ونحنوَ على فتاة ابتلاها الله بعشــق مُحرَّم ومرفوض ، ومن غير المعقول أن نمــارسَ عليها ضغوطــاً رهيبــة ، ألم يكفِهم ما تعاني من ضغوط حتى نمارسَ نحن عقدنا وســاديتنا ضد فتاة كل ذنبها أنها فقط عشــقت ؟ كذلك "عبد القادر" والد "ســلوى" كان يتألم على مصير هذه الفتاة التي كان من الممكــن أن تصبح ابنته ، فقد أحبَّ "دميانة" في صمتٍ يليق بقديسين ، ولم يُصرِّح بحُبِّه لها لأحدٍ يوماً .

كانــت حكايــا بيت الشــيخ "صالح" التــي تسردها "فــردوس" في ليالي الديــر الباردة تمثل لفيبي دهشــة

كبيرة ، هذا عالمٌ جديدٌ من العشق والألم ينفتح أمامها ، وهذه الحكايا فتحت في روحها نهماً لا يرتوي ، فصارت جلساتُها مع "فردوس" بمثابة الحياة البديلة التي تجعلها قادرة على الصمود ، بــل صارت الراهبة العجوز تتفتح للحياة ، مثل شــجرة كادت أن تجف ، فسقطت أمطار السماء على أوراقها وفروعها ، ورَوَتْ الجذور ، وأعادتْ لها الحياة.

رُبَّما كانت اللحظــاتُ الأكثرُ رعباً بالنســبة لفردوس حينما تجرُّها الراهبة العجوز للحديث عن زوجها ، كانت تفزع "فردوس" من اســتدراجها لهــذه المنطقة ، لكنها في النهاية كانت تخضع للأمر وتحكي تفاصيلَ لم تعِشْــها حقيقةً مع زوجها ، بل تمنَّتْ أن تعيشَها مع "محمود" ، والراهبة ترتعش، وتهتزُّ مثل نبتة عطشى اهتزَّت وربتْ لنزول الماء الزلال عليها، كانت ترسم صورة لبرسوم كما تمنَّته ، جعلتــه في حكاياها رجلاً مُكتملَ الرجولة حنوناً عطوفاً ، ورســمت لحظات سعادة عاشتْها معه ، عادت "فــردوس" إلى عالمها البديل ، وكأنها اســتبدلت عالمها الجديد الذي ترســمه بكلماتٍ عامرة بالوجد والعشــق

هو البديل عن عالمها الصغير مع عرائســها القطنية ، إن قوة الخيال والحكي جعلا المرأتين تعيشان أجملَ لحظات سعادتهما ، لكنها كانت تفزع من مشهد جسد الراهبة المتشنِّج ، وتدور في عقلها كلُّ المخاوف والشائعات التي تدور عــن مجتمع الراهبــات الــسريّ ، وفي كل لحظةٍ تتوقع أن تمتدَّ يدُ الراهبة ، لتلمس جسدَها ، لكن هذه المخاوفَ لم تحدث ، بل كانت رعشــة الراهبة تخصُّها ، ولم تقمْ أبداً بمدِّ يدٍ لملامسة "فردوس" أو حتى ملامسة جسدها هي ومناطق شهوتها ، لم تعرف "فردوس" أبداً ماذا يحــدث مع الراهبة ، ولم تمتلــك يوماً القدرة على أن تســألها في الأمــر ، لكنها في اليوم التــالي كانت تجد وجــهَ الراهبة صبوحاً منشرحاً ، وتجدُ منها حنواً وعطفاً يُهوِّنان الحياة عليها في الدير.

لكن الشجرة التي اهتزَّت ورَبَتْ فجأة انسحبتْ منها الحياة في صبيحة يوم صيفيّ حارّ ومُتْرَعٍ بالرطوبة، نعقت الغربان على الدير ، وانتشرَ في الهواء الفاســد المُشــبَّع بالعرق والكآبــة خبرُ موتِ الراهبــة العجوز ، انطفأت شمعة كانت تضئ لياليَ الدير لمدة خمسةٍ وأربعين عاماً

حين دخلت ابنــة الحادية والعشريــن الجميلة المُترَعة بالشباب إلى دير القديسة "دميانة".

كانت الليلة الأخيرة للراهبــة مع "فردوس" يُحيطها الوجــدُ من كل جانب ، الراهبة تحدثتْ عن أمها وأبيها وحياتهــا الســابقة بوجد وشــغف عظيمــين ، وكذلك اســتمعت لفردوس وهي تحكي عــن علاقتها وأحلامها بمارجرجــس قديس روحها وعن القديســة دميانة التي ترعاهــا ، وتأتيها في الليالي التي تشــتدُّ فيها وطأة غربة "فردوس" عن دارها وعن أبيها وأمها.

لم تنشــغل الراهبة في ليلتها الأخيرة بحكايا العشق ، لفَّها الوجد والتحنان وحين شعرت برغبة في النوم قبَّلتْ "فــردوس" وضمَّتْها كمَنْ يُودِّع الحيــاة ، وأخذتْ منها وعــداً صادقاً بأن تقــرأ لها "فردوس" مزمــوراً كل ليلة عقبَ صلاة التسابيح وتهبَه لروحها ، وعدتْها "فردوس" وهــي تمزح معها وتقول لها : "ســيدتي فيبي لا تخافي ، فأنت ســوف تدفنينا جميعاً بما فينا الأم الرئيسة ، ولن يجرؤَ ملاك الرب أن يقترب من روحكِ البهية ، فلا سبيلَ

إلى ذلك ويسوع يُحيطكِ".

ابتسمتْ الراهبة في وَهَنٍ وغادرتْ .

نزلَ خبرُ موت الراهبة على الجميع بالصمت المُفزع، غــرق الدير في صمت كأنه تحــول إلى مقبرة عظيمة لا يُســمَع فيها سوى نعيقُ الغربان ولا تُشــمُّ فيها رائحة حياة ، بل تســمَّم الهــواء برائحة العفــن ، كان صمتُ الدير أســطورياً وكأنَّ ملاك الرب سلبهُنَّ الحياة بقبضةٍ واحدة.

لكــنَّ الأمَّ الرئيســة التي تعوَّدت على نــوازل الزمان ومفاجآت ملاك الرب تمالكتْ نفسها ، واتصلت بالأبراشية القريبة من الدير ، حتى يُرسلوا لها قسَّاً يُقيم الصلاة على جسد الراهبة الذي عادت إليه نضارتُه بعد تطهيره ولفه في ثوب مــن الكتان الأبيض أعدَّتْــه الراهبة منذ عقودٍ ليكون كفنَها ، وصل القِسُّ ومعه بعضُ الرهبان وأقاموا قداســاً على الجسد المسجّى في الصندوق، ثم تمَّ دفنُه ، وظلَّ الدير لأيام طويلة تغمُرُه رائحة العطور والحنوط التي لفَّت جسد الراهبة.

كانت "فردوس" تعيــشُ في لحظاتِ صمتٍ خاصة ، لم تعد تغــادر قلايتها تقريباً إلا إذا حضرتْ إليها "تماف ميريني" لتطمئنَّ أنها ما تزال تحيا وتأخذها لتناول بعض الطعام حتى تحافظَ على حياتها.

كانــت "فــردوس" لا تتوقــف عــن تــلاوة المزامير والصلوات على روح "فيبي" وتشــعر بروحها تقف على إفريز طاقة القلاية تباركها.

بعد مرور شــهور على حالــة التوحد التي عاشــتها "فــردوس" في قلايتها قررت أن تغــادر الدير ، خرجت ذات صباح إلى غرفة الطعام وشاركتْ الراهبات ـ اللاتي رحَّبنَ بها ـ طعامهن ، وبعد تناول الإفطار استأذنت الأمَّ الرئيســة أن تنفردَ بها ؛ لتتحدث إليها ، أخبرتها برغبتها في مغادرة الدير، صمتتْ الأم الرئيســة وقتاً طال لدرجة أنَّ "فردوس" أرادت أن تهزَّها ؛ لتتأكد أنها ما تزال تحيا، ثــم صلَّبتْ المرأةُ على صدرِهــا وقالتْ بصوت خفيض : "آمــين" ، فعرفت "فــردوس" أن الأمَّ كانت تصلي ، ثم جاء صوتُ الأم عميقاً وقالتْ لها:

ـ "يا ابنتي : إننا نحمل يسوع في قلوبنا حيث ذهبْنا ، اخرجي للحياة وعيشيها كما أراد لك ابن الرب ولا تنسينا في صلواتــك" ، وقد خرجت "فردوس" في ســيارة الدير التــي أوصلتها إلى أقرب مكان تجد فيه مواصلات عامة، واتجهــت إلى قريتها في الصعيد حاملــةً معها ذكرياتٍ كثيرة وروحَ راهبةٍ تشعُر بها تقف على كتفها لا تفارقها إلا حــين يغطي ملاكُ النوم عينيهــا، وفي طريق العودة كانت تســتعرض من جديد حياتها وتعيد ترتيبها ، أيُّها السيدُ الرب : عريانة دخلتُ إلى الدير وعريانة خرجتُ، إنَّ يــدَ عبدك أيوب تحط على روحــي، إنَّنِي أعيشُ كل تفاصيــل ألمي بما يليق بابنة صبــور مخلصة طامحة في الأبديــة "عُرْيَانًا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّــي ، وَعُرْيَانًا أَعُودُ إِلَى هُنَاكَ ، الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ ، فَلْيَكُنِ اسْــمُ الرَّبِّ مُبَارَكًا".

ما كانتْ قادرة على حســاب لحظــات الترقب التي عاشــتها منــذ أن دخلت عتبة الدير حتــى غادرتها ، لا تعــرف من كانــت تترقب ، قفــزتْ إلى بؤرة شــعورها لحظــاتٌ تماهتْ فيهــا صــورة "مارجرجــس" بصورة

"محمود" ، كانت تسعى جاهدة أن تقبض على هذه الصورة الملتبسة وتثبتها أمامها تتأملها ، لكنها كانت تغيب وسط طوفان الصورالتي تلوح ، تبعد وتقترب ، ربما كانت أحلامُها هي الأكثر عمقاً ودلالة عما تعانيه ، تذكرت "جمعية الخلاص" التي كانت قد أنشأتها بعد طلاقها من "برسوم" ، تذكرت كلَّ هاتيك النساء اللاتي قدَّمتْ لهُنَّ المساعدة ، وحين قررت أن تذهبَ للدير ذهبت إلى الشئون الاجتماعية في المنيا ، وأخبرتهم أنها تريد أن تتنازل عن الجمعية لهم ، خطر في بالها أن تذهب للأبراشية وتتنازل لهم عن الجمعية ، لكنها ساعة إنشائها استخرجت كل تصاريحها من الشئون الاجتماعية ، بل وكان ثمة مفتشين يأتون إليها بشكل دوريّ للتفتيش وخاصة أنَّ من تعتني بهم الجمعية من النساء من المسيحيات والمسلمات معاً ، وأنَّ من يأتي إلى الجمعية يأتي مأزوماً بشأن اجتماعيّ بحت ، فهي ليست جمعية دينية ، ولم تُرِدْ أن تُعطيَها هذه الصفة حتى توسِّعَ دائرة مساعدة النساء المأزومات.

دخل فيَّ روحُ القدُس لمَّا تكلم معي وأقامني على

قدميّ فســمعتُ المتكلــم معي ، إنها قــوة الرب الإله يُرسِــلها إليّ ليعيدني للحياة ، ليقودَ خطواتي وأنا خارجة من الدير ، ليُمسِكَ بيدي ويخرجَ بي إلى الضياء بعد ظلام نفسي المُتْرَعةِ بالألم .

عين حلوان

مارس 2014 إلى ديسمبر 2015

***